



زوابع

مارون عبود

زوابع

تأليف
مارون عبود



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٨٠٤ ٦

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٦.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	الإهداء
٩	كلمة ...
١١	في سبيل الذرية
٤٣	في سبيل الاستقلال
٦١	شبهات وظلمات
٧٧	أشكالٌ وألوانٌ
١١٩	إثارة لا رثاء
١٣١	في سبيل الإخاء
١٣٥	من عهد الصِّبا
١٤١	إلى شيخ المجاهدين
١٤٥	بيني وبين الرِّيحاني

الإهداء

إلى كل عربيٍّ مُجاهِدٍ في هِجْرَتِهِ، معْتَرٍ بعِروْبَتِهِ، مُناضِلٍ مُكافِحٍ في ميادينِ الحياة، عاملاً مُجدِّاً، رافعٍ شأنَ لُغَتِهِ وأُمَّتِهِ في أُرْبَعَةِ أَقْطَارِ المُسْكُونَةِ، غانِمٍ المَالَ حِلاًّلاً زِلَلاً، طامِحٍ إلى بُلُوغِ أبْعَدِ غَايَاتِ الحِياةِ من غَنَى وشَرَفٍ ومُجْدٍ. إلى الرَجُلِ الذِي تَمَثَّلَ لِي بِهِ وَجْهُ اللِّبْنَانِيِّ الفاتِحِ المُجْدِّ، والعَرَبِيِّ الأَنْوَفِ الأَبْيِّ، إلى السَّيِّدِ نَدْرِهِ فَلْفَلِي أَهْدِي هَذَا الدِّيوَانَ.

فهُوَ رِسالَةٌ قَوْمِيَّةٌ مِنْ قَلْبِ هَذَا الشَّرْقِ النابِضِ، الرَّافِعِ لواءَ العِروْبَةِ حَيْثُ حَلَّتْ رِكابُهُ، الناشِرِ مَنْطَقَ الشَّيْخِ يَعْرَبُ في حِواضِرِ الدُّنْيا وَمَجاهِلِها، وَسَوْفَ يَكُونُ أَوَّلَ ناطِقٍ بِالضادِ في القَمَرِ والمَرِيخِ، إِنْ شاءَ اللهُ.

فاحمِلْ يا أَخِي نَدْرَةَ، غَيْرَ مَأْمُورٍ، هَذِهِ الرِسالَةَ الَّتِي حَثَّتْ عَلَيَّ إِذاعتِها، ومَدَدَتْ إلى بَعْثِها يَدَكَ البَيضاءَ.

فَعَسَى أَنْ تَجِدَ إِيمانَ المُشَكِّكِينَ، وتَشَدَّدَ الرُّكْبَ المُخْلَعَةَ، فَيَسْتَعِيدَ هَذَا الشَّرْقُ الجَميلُ المَعشُوقُ مَجْدَهُ الضائعَ وتِرائِئَهُ المَغْتَصَبَ.

١٩٤٦/٦/٢٦

مارون عبود

كلمة ...

ضع محلّ هذه النقطِ النعتَ الذي تُريدهُ، فأنا قد حلفتُ أن لا أكتبَ مقدمةً لكتابٍ من كتبِي، وأبيتُ أن أستجدي المقدماتِ ولو من أفلاطون، وامتنعتُ عن أن أقدمَ شاعراً أو كاتباً إلى القارئ، وسواء عندي أكان قد خملَ ذكرُهُ أم طارَ صيته حتى اختفى خلف الغيوم.

أعود فأقول لك هذه كلمة لا مقدّمة، إنها كلمة أريد أن «أعترف» لك بها، فأطلعك في هذا الديوان على نزعاتي كلها، بل على دخيلة نفسي، حتى على «الأسرار» المكتومة منها. وبعدُ، فاعلم يا عزيزي — رعاكَ اللهُ وحفظني وحفظكَ — أن ديواني هذا ليس سلّة مشمشٍ «لأوجّهها» لك، فلا أنا بائعٌ ولا أنت شار، لا يا أخي، إنّ هذا الديوان رسالة ... عفوًا! هو فكرةٌ عشتُ بها زمناً رغداً، وما زلتُ أحنُّ إليها، وأنا على هواها. حالي معها كحال الرجلِ مع صاحبتِهِ، قد تتنكّر له، وقد يجفوها، ولكنّهما في الحالين، حال الرضا والغضب، واليسر والعسر، حبيبان، ودودان، متيّمان، مولّهان، ولولا ذلك لم يتشاكسا، أوكد لك أنني لم «أحرد» يوماً كاملاً، أي لم تغربِ الشمسُ على غضبي؛ ولهذا ها أنا أضع بين يديك الكريمتين قصائدي، كما قلّتها في وقتها، لم أحكك ولم أنقح إلا في قصائد معلومات، وأنت — لا شك — تعرفهنّ بلا عناء، إنّ سيماءهنّ في وجوههنّ.

فبعض القصائد التي ترى، لك أن تسمّيها خطباً — إذا شئت — استخدمت لتؤدي فكرة ثائرة كانت تتقدّ في نفسي ولما تزل، ففيها الشعر وفيها النثر، وأنا أعرف منها ما ستعرف أنت، ولكنها في كل حال تقضي لبانة من تعرض وصله.

فإليك إذن، مارون الشاعر في كل أطواره، بعجره وبجره، كما كانوا يعبرون، فارتع — أجزلك الله وأجزل ثوابك — في هذه الجنة الغناء، ولك أن تقول فيها بعدد ما شئت.

هذا هو مارون عبود الشاعر، أما مارون عبود الناثر فهو رجل غير هذا، أفهم يا صاحبي، إن الناقد يعرف الذهب ويميزه، وإن عجز عن خلقه، فإن رأيته عند هذا المارون ما لا ينطبق على آرائه في الشعر، حين ينتقد غيره، فكن متأكدًا أن مارون الناقد لن يرحم مارون الشاعر، فوالله، وبالله، وتالله، لأؤدبته أدبًا صارمًا، ولأحملنَّ عليه، كما حملتُ على غيره، حملاتٍ غواشم، فهو يدَّعي أنه يؤدِّي رسالة منظومة لينجو من يدي، فلسوف أرينه حين يقع ديوانه بين يدي، أن هذا الادعاء لا يعصمه ولا ينجيه، سترى أنني سأري ذلك المارون الوقح كيف يكون النقد المر، وإن يغضب فلا رحمه الله، ولتهتز عظامه في قبره، فكم أغضبت غيره من قبل، أما قيل: بالكيل الذي تكيلون يُكأل لكم وأزود؟
انتظر يا قارئ، إنها ساعة لها ما بعدها في تاريخ النقد.
انتظر، انتظر، فما أقرب اليوم من غد!

يَخْلُقُ الشَّعْرُ كُلَّ يَوْمٍ عَرُوسًا	مِثْلَمَا تَخْلُقُ الْخَمُورُ الْحَبَابَا
تَتَجَلَّى لَنَا الْعَذَارَى فَنَكْسُو	عَرِيَّهَا مِنْ بَيَانِنَا جَلْبَابَا
لَا تَقُولُوا شَبْنًا، فَمَا الشَّيْبُ عَيْبٌ	إِنَّ فِي الشَّيْبِ مَنْ يَبِزُّ الشَّبَابَا
رُبَّ شَيْخٍ مَا انْفَكَ عَارِضَ رَمَحٍ	وَعِلَامٍ فِي مِيعَةِ الْعَمْرِ ذَابَا
رُبَّ شَيْخٍ مَا شَاخَ حَزْمًا وَعِزْمًا	يَتَأَبَّى لَوْ اسْتَحَالَ تُرَابَا
لَوْ أَتَتْنَا الْحَيَاةُ تَسْتَرْزِقُ الْعِزْمَ	خَلَعْنَا عَلَى الْحَيَاةِ شَبَابَا

في سبيل الذرية

(١) نشيدان

نظمت هذين النشيدين لسبب تربوي يدركه اللبيب، وقد أقرت الأول وزارة المعارف اللبنانية، أما الثاني، وإن يكن مختصاً بمدرستنا الجامعة الوطنية، فهو عامٌ أيضاً بروحه ومغزاه.

نشيد الطلاب

طَالِبِي الْعِلْمِ هَلُمُّوا وَاحْمِلُوا أَبْهَى عِلْمٍ
عِلْمَ الْعِلْمِ لِيَسْمُو قَدَرُنَا بَيْنَ الْأُمَمِ

* * *

أَيُّهَا النَشْءُ الْجَدِيدُ أَنْتَ آمَالُ الْبِلَادِ
وَبِكَ الْمَاضِي يَعُودُ وَعَلَيْكَ الْاعْتِمَادُ

* * *

عَلِّمُوا الْجَاهِلَ مَنْأً واجِبَاتِ الْوَطَنِ
خَبِّروهمْ كَيْفَ كُنَّا سَادَةً فِي الزَّمَنِ

* * *

قَدْ خَسِرْنَا كُلَّ مَجْدٍ وَابْتَلَانَا جَهْلُنَا

زواج

ما تَرَاهُ الْيَوْمَ يُبْدِي شَيْخُنَا أَوْ كَهْلُنَا

* * *

أَنْتُمْ الْأَمَالُ أَنْتُمْ أَنْتُمْ الْمُسْتَقْبَلُ
فَاذْكُرُوا مَجْدًا أَضَعْتُمْ وَلَكِي يَحْيَا اْعْمَلُوا

* * *

عَلِّمُوا النَّاسَ جَمِيعًا دَرَسَ حَبٌّ وَوِثَامُ
نَعْنَمِ الْعِزِّ الرَّفِيعَا بَعْدَ وِثَامِ الْخِصَامِ

* * *

إِنَّمَا بِالْعِلْمِ تَحْيَا أُمَّتِي وَهُوَ الْمَنَى
فَالِى الْمَعْهَدِ سَعِيًّا حَيْثُ نَلْقَى كَنْزَنَا

* * *

أُمَّةُ الْعَرَبِ يَمِينَا مِنْ بَنِيكَ الصَّادِقِينَ
سَوْفَ نَسْعَى مَا حَبِينَا فَخُذِي الْعَهْدَ الْمُتِينَ

أنشودة الشباب

شَبَابَ الْبِلَادِ زَهْوَرَ الْأَمَلُ إِلَى الْمَجْدِ سِيرُوا صَفُوفًا صَفُوفُ
فَعَزَمُ الشَّبَابِ يَدُكَ الْقُلُّ وَحَزَمُ الشَّبَابِ يَفْلُ السِّيُوفُ

* * *

بَسَطْنَا عَلَى الْبَحْرِ ظِلَّ الْمُنَى وَفَوْقَ الصَّحَارَى رَفَعْنَا الْعَلَمَ
وَفِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ آثَارُنَا تَحَدَّثُ عَنَّا جَمِيعَ الْأُمَمِ

* * *

فَكَيْفَ التَّوَانِي وَمَنَا الْأَلَى أَدَارُوا السَّفِينِ وَقَادُوا الْجُيُوشِ
وَشَقُّوا طَرِيقَ الْعُلَى لِلْمَلَا فَشَادُوا عُرُوشًا وَدَكُّوا عُرُوشَ

* * *

هَلُمُّوا نَضُمْ لِمَجْدٍ عَرِيقُ طَرِيفَ النُّهَى وَجَدِيدَ الْفَلَاحِ
جِهَادًا فَنبْلَغْ أَقْصَى الطَّرِيقُ فَمَنْ جَدًّا أَدْرَكَ أَسْمَى النِّجَاحِ

* * *

أَلَا فَاطِلَعُوا مِنْ سَمَا الْجَامِعَةِ كَوَاكِبَ عِلْمٍ تَنْبِيرُ الظُّلَمِ
وَكُونُوا إِذَا دَعَتِ الْقَارِعَةُ نُسُورَ النُّضَالِ وَأَسَدَ الْأَجَمِ

(٢) قلعة بعلبك

زرت بعلبك — أول مرة — مع تلاميذي، فالتقينا في القلعة مع جماعة من الغربيين. وقفنا جميعًا مشدوهين في هيكل باخوس العظيم، وتحت أعمدته الرفيعة، فسمعتهم يتحدثون عن هذه الآثار الضخمة، معجبين بالأجداد، متعجبين من تغوير عبقرية الأحفاد؛ فعدت متبرمًا، وقلتها كما تراها، وأنشدتها — ولا فخر — في الحفلة المدرسية الختامية، التي أقيمت في «نادي أوتيل البحار» وهي على رمية حجر من قصر الجنرال «ويغان» المندوب السامي عام ١٩٢٤.

وذهبت في اليوم الثاني إلى بيتي في عين كفاح، متلفئًا ورائي، تلفت مذعور لا تلفت الشريف الرضي.

أُقَلِّبُ فِي صَحَائِفِهَا الْعُيُونَا وَأُخْفِضُ مِنْ مَهَابَتِهَا الْجَبِينَا
وَأَنْظُرُ فِي بَقَايَاهَا حَزِينَا أَسْأَلُ عَنْ عِظَائِمِهَا الْقُرُونَا

* * *

أَطَلْتُ بَعْلَبُكَ وَلِي فَوَادُ يَذُوبُ إِذَا يَلَامِسُهُ الْجَمَادُ
فَقُلْتُ لَدُنْ سَمَا مِنْهَا الْعِمَادُ أَعْرِفَاتُ بَدَتْ أَمْ طَوْرُ سِينَا؟

* * *

لِمَنْ تِلْكَ الْبِنَايَةُ كَالْجِبَالِ أَصْنَعُ الْجَنِّ أَمْ صَنَعَ الرِّجَالِ؟
لَقَدْ صَبَرْتُ عَلَى جَوْرِ اللَّيَالِي تَصْبُرُنَا عَلَى الْمُسْتَعْمَرِينَا

* * *

بها عَمَدُ سَمَتٍ كِبَرًا وَتِيهَا تَحَدَّثُ كُلُّ رَأٍ عَنْ بَنِيهَا
وَقَدْ لَعِبْتُ يَدَ الْحَدَثَانِ فِيهَا كَمَا لَعِبْتُ يَدَ الْغُرَبَاءِ فِيْنَا

* * *

رَأَيْتُ صَخُورَهَا تَبْدُو أَمَامِي كَأَشْلَاءِ الْجَبَابِرَةِ الْعِظَامِ
مَكْرَدَسَةً هُنَاكَ بَلَا انْتِظَامِ مَبْعَثَرَةً كَمَا قَدْ بَعَثَرُونَا

* * *

وَفِي الْأَحْجَارِ قَدْ نُقِشَتْ زُهُورُ وَأَثْمَارُ يَحَارُ بِهَا الْبَصِيرُ
وَأَسَادٌ وَلَيْسَ لَهَا زَنْبِيرُ كَشَعِبِ الشَّرْقِ لَا يُبْدِي أُنَيْنَا

* * *

وَأَطْيَارُ وَقَدْ هَيْضَ الْجَنَاحِ فَأَمَسْتُ لَا غَدُو وَلَا رَوَاحُ
لَقَدْ أُسِرَتْ فَلَيْسَ لَهَا سِرَاحُ كَأَسْرِ الْجَهْلِ لِلْمَتَعَصِّبِينَا

* * *

أَرَادَ الدَّهْرُ فِيهَا مَا اسْتَطَاعَا وَقَدْ زَهَبَتْ مَآثِرُهَا ضِيَاعَا
وَكَمْ أَثَرٍ قَدْ اخْتَلَسُوا فُضَاعَا كَمَا ضَاعَتْ حَقُوقُ الْقَاصِرِينَا

* * *

رَأَيْتُ أَمَامَهَا عِدَدًا عَظِيمًا مِنَ الْإِفْرَنْجِ يَحْتَرُمُ الْقَدِيمَا
فَقَالُوا هَلْ بَنَى الصَّرْحَ الْفَخِيمَا جَدُودٌ مِثْلَكُمْ أَبَقُوا بَنِينَا؟!

* * *

أَجَبْتُ: نَعَمْ، لَقَدْ رَفَعُوا ذُرَاهَا وَنَحْنُ بَنُوهُمْ نَأْوِي حِمَاهَا
هِيَ الْأَيَّامُ مَذْ ذَارَتْ رَحَاهَا غَدُونَا فِي اللَّقَاءِ لَهَا طَحِينَا

* * *

لَقَدْ غَابَتْ شَمُوسُ الْعِلْمِ عَنَّا فَلَا عَجَبُ إِذَا مَا اللَّيْلُ جُنَّا
بِذَاكَ الْعَهْدِ قَدْ كُنْتُمْ وَكُنَّا سَلُوا التَّارِيخَ يَنْبِئُنَا الْيَقِينَا

* * *

سَلُوا عَنَا الْمَغَارِبَ فَهِيَ أَدْرَى ففِيهَا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ذَكَرَى
فَقَرْطَبَةٌ بَدَتْ فِي الْغَرْبِ بَدْرًا أَنْارَ عَقُولَكُمْ حَقَبًا مَثِينَا

* * *

وَكَمْ فِي الْعُرْبِ مِنْ مَلِكٍ هَمَامٍ لَهُ التَّارِيخُ يَسْجُدُ بِاحْتِرَامٍ
بَنَى مَلَكًا عَلَى حَدِّ الْحَسَامِ وَقَدْ قَادَ الْمُلُوكَ مَصْفَدِينَا

* * *

سَلِ الْآثَارَ عَنْ أَسَدِ الْجُدُودِ وَلَا تَنْظُرْ إِلَى بَعْضِ الْقُرُودِ
أَصَارُونَا لَكُمْ مِثْلَ الْعَبِيدِ أَلَا هَاتُوا الْخَزَامَةَ قَيِّدُونَا

* * *

سَيُدرِكُ شَعْبُنَا الشَّرْقِيُّ عِلْمَا يَثِيرُ بِصَدْرِهِ حَزْمًا وَعِزْمًا
إِلَى اسْتِقْلَالِنَا نَسْعَى وَإِمَا تَمُوتُ الْأَسَدُ أَوْ تَحْمِي الْعَرِينَا

* * *

فَتَحَتَ عِبَادَةَ الْعَرَبِيِّ مَجَلَى فَخَارَ كَمْ بِهِ صَلَّى وَجَلَى
فَجَدُّوْا يَا بَنِي وَطْنِي وَإِلَّا ظَلَلْتُمْ فِي «الْوَصَايَةِ» رَاسِفِينَا

* * *

بَنِي وَطْنِي لَقَدْ ضَاعَتْ لِحَانَا لَدُنْ عِبَثَتْ بِهَا «حَانَا وَمَانَا»
هُمْ الْعَمِيَانُ قَادُونَا زَمَانَا وَفِي مَهْوَى التَّفَرُّقِ دَهْوَرُونَا

* * *

فَأَلْقُوا نِيرَهُمْ عَنْكُمْ وَهَيَّا دَعَا هَذَا الْخِلَافَ الْمَذْهَبِيَّا
فَمَا أَبَقَتْ لَنَا الْأَدْيَانُ شَيْئًا سِوَى اسْتِعْبَادِ أُمَّتِنَا قَرُونَا

* * *

بِلَادِي قَدْ ذَوَى غَرْسُ التَّمَنِّي فَقُولِي لِلْخَثُونِ إِلَيْكَ عَنِّي
فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتُ مِنِّي لَحَا اللَّهُ الْبَنِينَ الْخَائِنِينَ

* * *

أُرِيدُ بَنِيَّ أَبْطَالَ الْكِفَاحِ لَكَيْمًا يَضْمَدُوا يَوْمًا جِرَاحِي
مَتَى مَا يَدْعُ حَيٌّ عَلَى الْفَلَاحِ مَشَوْا أَسَدَ الْوَغَى مَتَطَوَّعِينَا

* * *

عَلَى الْأَوْطَانِ يُرْجَى مِنْ بَنِيهَا وَلَا يُرْجَى مِنَ الْغُرَبَاءِ فِيهَا
كَبَبْتُ أَوْطَانَكُمْ هَبُّوا أَنْهَضُوا وَكُونُوا فِي الْوِظَائِفِ زَاهِدِينَا

* * *

أَرَى الْحَمَّارَ يَحْلُمُ بِالْوِظَائِفِ وَأُصْبَحَ فِي حِمَى الْحَكَّامِ طَائِفُ
وَقَدْ قَامَتْ قِيَامَاتُ الطَوَائِفِ عَلَيْهَا يَنْتَهَضُنَّ وَيَرْتَمِينَا

* * *

أَرَى أَنَّ لَا تَقْدُمَ لِلْبِلَادِ إِذَا ظَلَّتْ طَوَائِفُهَا بَدَادِ
وَلَنْ يَرْقَى بِغَيْرِ الْاِتِّحَادِ نَصَارَى شَرْقِنَا وَالْمُسْلِمُونَا

* * *

فَسِيرُوا لِلتَّقْدُمِ وَالطَّمُوحِ لَنَكْبَحَ صَوْلَةَ الدَّهْرِ الْجَمُوحِ
فَمَنْ وَلَدَتْ كَأَحْمَدَ وَالْمَسِيحِ وَمُوسَى لَا تَضُنُّ بِآخِرِينَا

* * *

فَمَنْ أَبْنَاءُ يَعْرَبَ كُلُّ مَا جَدُ فَكُونُوا إِخْوَةً وَدَعُوا الْمَفَاسِدُ
وَصَلُّوا مَا أَرَدْتُمْ فِي الْمَعَابِدِ وَخَرُّوا فِي الْجَوَامِعِ سَاجِدِينَا

* * *

فَدَيْنُ الْأَرْضِ أَجْمَعِهَا إِخَاءُ فَإِنْ تَبَنُّوا عَلَيْهِ سَمَا الْبِنَاءِ
وَلِلتَّوْحِيدِ خَطُّ الْأَنْبِيَاءِ أَنْاجِيلاً وَقِرَاءًا مَبِينَا

* * *

سَنُرْقَى عِنْدَمَا تَرْبِي الْمَدَارِسُ عَلَى عَدَدِ الْجَوَامِعِ وَالْكَنَائِسُ
وَنَسْحَقُ رَأْسَ أَصْحَابِ الدَّسَائِسُ وَنُقْصِي الْخَنْعَ الْمَتَذَبِّذِينَا

* * *

سنحيا والحياة بالاجتهاد بشبَّانِ كفرسانِ الطرادِ
إذا نشئوا بجامعةِ البلادِ وحبَّ بلادِهِم يتشرَّبونا

* * *

أجلُ بمدارسِ الأوطانِ تُغرَّسُ مبادئُ نهضةٍ فينا تُقدَّسُ
فهذي هيكلُ الوطنِ المقدَّسِ فحيُّوه احترامًا خاشعينا

* * *

فتلكَ معاملُ تُنشي الرِّجالا ليلقوا في صدورِهِم النبَّالا
كذا يا قومنا أو لا فلا لا مدارسنا وتربية البنينا

* * *

فأنتم عُدَّةُ الوطنِ المُفدَّى ألا كُونُوا إلى الأوطانِ جندا
وإنِّي مثلكم أسعى مُجِدًّا وإن أدركتُ حدَّ الأربعينا

* * *

بكم تُرَجى لموطننا الحياةُ فأهلُ الحزمِ دونَ الخلقِ ماتوا
إلى الإصلاحِ ندعوكم فهاتوا قناةً كالأعاربِ لن تلينا

* * *

على لغةِ النبيِّ مع الصحابِ أغيروا غارةِ الأسدِ الغضابِ
فقد جمعتكم لغةُ الكتابِ وإن فُرِّقتمُ حسَبًا ودينا

* * *

ففيكم تفخرُ الأمُّ الحنونُ فصونوا تربةِ الأجدادِ صونوا
وهذا الأرزُ يخنقهُ الأنينُ يمدُّ لكي يضافحكم يميننا

* * *

يُحيِّي في شبيبَتكم جدودًا لقد عاشوا بظل الكوخِ صيدا
وصرنا في مواطنهم عبيدا نُساقُ إلى المهانةِ مُكرهينا

* * *

جدودٌ قد حمّوا هذي الجبالا وما وردُوا المذلة والنكالا
لقد كانت نساؤهم رجالا وصار رجالكم متخنّثينا

* * *

وليس الحرُّ من سكن القصورا ونام على وسائدها أميرا
بل الحرُّ الهمام ولو فقيرا إذا ما كان يأبى أن يهونا

* * *

بني وطني وفي وطني هيامي وفي استقلاله أقصى مرامي
فإن يدرك فمن قبري عظامي تقوم وتلبس الدرع المتينا

١٩٢٤

(٣) شباط في عاليه

كنت جلداً صبوراً، ولا أزال، وأتيت عاليه، وأنا مربى عين كفاح وجبيل، فجاءوني في
إحدى ليالي شباط البيضاء بكانون فحم أشقر اللهب كخذ الحسنة، وكانت جمعية
الثمره سألتني الكلام في إحدى جلساتها فكان الموضوع الذي تقرأ.

ثغر الطبيعة قد تبسم عن برد والثلج مد رواقه فوق البلد
قل للذي قد هاله مرأى الجلد هذا شباط الوغد كم أوهى جلد
متقلّباً متلّوناً مثل البشر

كادت تخور به رواسي همّتي لولا التفكير في شبيرة أمّتي
قد غره شيب أضاء بلمّتي لم يدّر أنّي، في سبيل مهمّتي
طود، وهل يندك طود من حجر؟

قالوا لي «الكانون» بالباب اضطرر فأجبت: أقصوه، فكانون انصرم
أقصوا المواعد، إن نيران الهمم في الهيكل العربي تهز بالضرر
ما ضامنا برد ولا خفنا الخصر

حَسْبُ الْفَتَى الْعَرَبِيِّ بُرْدٌ مَنْ وَبَرَ وَعِبَاءَةٌ فِيهَا الْفَخَارُ عَلَى الْحَضَرِ
 إِنَّا سَلَالَةٌ مَعَشَرَ سَكَنُوا الْمَدَرَ وَتَرَبَّعُوا بَيْنَ الصَّخُورِ بِلَا حَذَرِ
 لَمْ يَرْهَبُوا إِلَّا الْمُهَيْمَنَ وَالْقَدَرَ
 نَحْنُ الْأَعَارِبُ نَحْنُ أَبْنَاءُ الْعَبَا أَهْلًا وَسَهْلًا يَا شَبَاطُ وَمَرْحَبَا
 لَا نَخْتَشِي رِيحَ الشَّمَالِ وَلَا الصَّبَا لِنَسَائِنَا عَفْنَا الْمَوَاقِدَ وَالْخَبَا
 أَمَّا الرِّجَالُ فَلِلثُلُوجِ وَلِلْمَطَرِ
 نَحْنُ الْأَلَى لَمْ يَخْفُضُوا قَطُّ الْجَنَاحَ نَشْتَوُا يَجُوبُونَ الْمَهَامَةَ وَالْبِطَاحَ
 فَإِذَا أَهَابَ بِجَمْعِهِمْ دَاعٍ وَصَاحَ مُسْتَنْفَرًا: يَا قَوْمُ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ
 هُبُوا لَكِيْمَا تُدْرِكُوا أَقْصَى وَطَرِ
 بِشَبَاطٍ قَدْ أَبْصَرْتُ أَنْوَارَ الْوُجُودِ وَرَأَيْتُ آسَادَ الشَّرَى مُسِخَتْ قُرُودُ
 وَرَأَيْتُ شَعْبًا خَامِلًا أَلْفَ الرِّقُودِ وَرَأَيْتُ أَهْلَ الْغَرْبِ فِي وَطْنِي تَسْوَدُ
 وَالشَّعْبُ ذُلٌّ وَمَجْدُهُ الْمَاضِي ائْتَدَى
 أَيْعُودُ لِلْأَوْطَانِ أَمِيسَ الدَّابِرِ وَيَعِزُّنَا هَذَا الزَّمَانُ الْحَاضِرُ
 أَيْظَلُّ يَخْضَعُ «لِلْوَصِيِّ» الْقَاصِرُ أَمْ نَسْتَقِلُّ فَتَسْتَرِيحُ خَوَاطِرُ
 أَمْ ذَاكَ شَرٌّ جَرِيْمَةٌ لَا تُغْتَفَرُ؟
 إِنْ تَطَلَّبُوا اسْتِقْلَالَكُمْ فَذَرُوا التَّعَبَ وَاسْتَبَسَلُوا طَرًّا وَلَا تُبْدُوا النَّصَبَ
 إِنْ أَنْشَدَ الْغَرْبِيُّ وَقْتِي مِنْ ذَهَبٍ نَادَى وَلِيدُ الشَّرْقِ وَقْتِي مِنْ حَطَبٍ
 هَيَّا اقْتُلُوهُ بِالتَّنَادِمِ وَالسَّمَرِ
 أَوَاهُ مَا هَذَا الْمَصِيرُ الْأَسْوَدُ أَنْظِلْ أُسْرَى لِلْوَرَى نُسْتَعْبَدُ
 ذُلٌّ مَشِيْنٌ لَوْ رَأَى مُحَمَّدٌ سَلَّ الْحَسَامَ وَقَالَ يَا قَوْمُ اهْتَدُوا
 وَبَكَى الْمَسِيحُ، وَذَابَ حَزَنًا وَانْفَطَرَ
 صَرْنَا نَظِيرَ شَبَاطِطِنَا نَتَقَلَّبُ وَإِلَى الْأَجَانِبِ بَيْنَنَا نَتَذَبْذَبُ
 وَسَوَى الْوِظَائِفِ عِنْدَهُمْ لَا نَطْلُبُ بَعْنَا بِهَا شَرْفًا بِنْتَهُ يَعْرُبُ
 شَرْفًا نَمَا فِينَا وَنَوَّرَ كَالزَّهَرِ
 أَشْبِيْبَةُ الْأَوْطَانِ سِيرِي لِلْعُلَى وَتَتَّبَعِي أَحْرَارَنَا وَدَعِي الْأَلَى
 فَالْحُرُّ يَأْبَى أَنْ يَعْيشَ مُذَلَّلًا الْحُرُّ إِنْ عَدَّتِ الدَّنَايَا مِنْهَلَا
 عَافَ الشَّرَابَ وَعَاشَ ظِمَآنًا وَفَرَا

(٤) ذكرى وشجون

وهذه القصيدة قتلها عند ظهور الآثار العظيمة في جبيل، ثم شاع خبر هجرتها إلى الغرب، فعزَّ علينا فراقها فشيّعناها بهذه القصيدة، وقد أنشدتها في حفلة سنة ١٩٢٣ ليلة عيد الميلاد.

أَيْنَ الأُلى كانوا إذا العَلَمُ استوى
عقدوا اللواء على صيانة أرضهم
لهفي، وما يُجدي علي تلهفي
إن تسألوا «مصرًا» عن الأقبال في
و«جبيل» كم فيها لنا من مُنبئ
ذِكْرُ تروُع الدهر إن نفعْتُ، ولا
لم يبق من أمجادٍ مشرقنا سوى
فلسوفَ تبلُعها البحارُ وما لها
آثارنا، بالله ربك خبّري
كنا وكان العزُّ ملءَ برودنا
ويُعيدُ هذا الشرقُ سالفَ مجده

يَتَنَفَّضُونَ كأنَّهم عِقبانُ
فتمردتْ في ظلِّه الأوطانُ
عندَ البليَّةِ يُحَمَّدُ السلوانُ
وادي الملوكِ تُجَبِّكُمُ التيجانُ
فلكلِّ قَبْرِ منطِقٍ ولسانُ
تُجدي إذا ما سُدَّتِ الأذانُ
«آثار» عزَّته، وأين تُصانُ؟
عودٌ إليه، فليتها يونانُ
تلك العواصمُ أننا أقرانُ
ولسوفَ تُرجعُ مجدنا المزانُ
إن أَلَفْتُ أحادها الشبانُ

* * *

يا شرقُ، ويحك، إنَّ داءَكَ قاتلُ
نثروا بأرضك بذرَ شرٍّ تعصَّب
نصبوا لنا شركَ الردي فتصبّدوا
باسمِ الإلهِ الفردِ فُرقَ شعبُه
ما ذاكَ شرعُ الله بل شرعُ الألى
الدينُ يأمرُ بالتألفِ والوفا
لو كانَ للكتبِ العقولُ تصافحَ
ورأيتُم في الخافقين أهلةً
الله في هذا الزمانِ وأهليه
إنَّ الوحوشَ تعيشُ في أجماستها

لا الطبُّ يشفيه ولا الأزمانُ
فنما وكانَ له بأرضك شأنُ
فمتى يُبددُ ذلكَ الإزعانُ
وتمكّنت من عنقه الأرسانُ
جعلوا الإلهَ وسيلةً ليُصانوا
بينَ الورى وملاكه الإحسانُ
الإنجيلُ والتوراةُ والقرآنُ
تحنو عليها في العلى صلبانُ
ضلّت بنوه وعمه الطغيانُ
غُصْبًا وَيُقْتَلُ بيننا الإنسانُ

فمتى نرى يا ربَّ إنسانيَّة
عيسى ألا عُدَّ للوجودِ هنيئةً
عشرونَ قرناً قد مضتْ وتصرَّمتْ
مهَّدتْ للدنيا سبيلَ محبةٍ
نبذتْ تعاليمَ السماءِ عصائبُ
قد أمطروا الأرضينَ وبلَّ تعصَّبُ
نهجوا بأهلِ الأرضِ نهجَ ضلالةٍ
الأرضُ أُمستْ بعدما غادرتها
عُدَّ يا ابنَ مريمَ للحياة، وقلْ لهم
إنَّ المبشِّرَ بالذي علَّمتهُ
قد أولوا آيَ الكتابِ فسيطروا

* * *

الدينُ حصنُ النفسِ في ثورانها
فتمسَّكوا بالهكمِ أمَّا الألى
ما شاقهم ألا تبددُ شملكم
فامشوا على سُبُلِ المحبَّةِ إخوةً
واستنهضوا الهممَ التي قعدتْ بها
نادوا بلاكُم أنْهَضِي وتنبَّهي
فيُدِّ الحوادثِ صيرتُه مقيداً

وهو الشكيمةُ إذ يكون حراً
زرعوا الشقاقَ فقادَّةُ عميانُ
لِتُعَرِّضَ الأكمَامُ والأردانُ
فبذاك يقضي الدينُ والديانُ
غَيْرُ الدهورِ وخانها الحدثانُ
كي يستفيقَ الموطنُ الوسنانُ
والشعبُ جَلادٌ لَهُ سَجَانُ

١٩٢٤

(٥) محمدٌ مارون

رزقت ولداً فسَمَّيته محمداً، فقامت قيامة الناس، فريق يستهجن ويقبِّح ويكفر، وفريق يوالي وينتصر، وكان أوَّل من قدَّر هذا العمل وأعجب به أشدَّ الإعجاب، صديقي المرحوم أمين الريحاني، فبعث إلي بكتاب ستقرؤه في فصل — بيني وبين الريحاني — أما الآن فأليك القصيدة وفيها التفصيل التام.

عَشَتْ يَا ابْنِي، عَشَتْ يَا خَيْرَ صَبِي
فَهْتَفْنَا وَاسْمُهُ مُحَمَّدٌ
خَفَّفِ الدَّهْشَةَ وَاخْشَعْ إِن رَأَيْتَ
أُمَّهُ مَا وَضَعْتَهُ مُسْلِمًا
وَالنَّبِيُّ الْقَرْشِيُّ الْمَصْطَفَى
وَلِدَتْهُ أُمُّهُ فِي «رَجَبٍ»
أَيُّهَا التَّارِيخُ لَا تَسْتَغْرِبِ
ابْنَ مَارُونَ سَمِيًّا لِلنَّبِيِّ
أَوْ مُسِيحِيًّا وَلَكِنْ عَرَبِي
آيَةُ الشَّرْقِ وَفَخْرُ الْعَرَبِ

* * *

يَا رُبُوعَ الشَّرْقِ اصْغِي وَاسْمَعِي
زَرَعَ الْجَهْلَ خِلَافًا بَيْنَنَا
«فَالْأَفْنَدِي» مُسْلِمٌ فِي عَرَفْنَا
شَغَلُوا الْمَشْرِقَ فِي أَدْيَانِهِ
وَأَفْهَمِي دَرْسًا عَزِيزَ الْمَطْلَبِ
فَافْتَرَقْنَا بِاسْمِنَا وَاللِّقَبِ
وَالْمُسِيحِيَّ «خَوَاجَه» فَاعْجَبِي
فَعَدَا عَبْدًا لِأَهْلِ الْمَغْرَبِ

* * *

يَا بَنِيَّ اعْتَزَّ بِاسْمِ خَالِدٍ
جَاءَ مَا لَمْ يَأْتِهِ مِنْ قَبْلِهِ
فَأَنَا خَصْمُ التَّقَالِيدِ الَّتِي
بَخْرَافَاتِهِمْ اسْتَهْزِئْ وَقُلْ:
وَعَدًا يَا وَلَدِي، حِينَ تَرَى
بِكَ قَدْ خَالَفْتُ يَا ابْنِي مَلَّتِي
عَصْرَ حُرِيَّةِ شَعْبٍ نَاهِضٍ
حَبَا الْيَوْمِ الَّذِي يَجْمَعُنَا
وَنَحْيِي عِلْمًا يَخْفِقُ فَوْقَ
وَتَذَكَّرْ، إِنْ تَعَشْتُ، أَوْفَى أَبٍ
عَيْسَوِيٍّ فِي خَوَالِي الْحَقَبِ
أَلَقْتُ الشَّرْقَ بِشَرِّ الْحَرْبِ
هَكَذَا قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِي أَبِي
أَثْرِي مُتَّبِعًا تَفْخَرُ بِي
رَاجِيًّا مَطْلَعُ عَصْرِ نَهْبِي
وَإِتِّحَادٍ لِبَقَايَا يَعْزُبُ
مِنْ ضَفَافِ النِّيلِ حَتَّى يَثْرِبُ
مَنَارَاتِ الْوَرَى وَالْقَبَبِ

* * *

لَيْتَهُ يَدْرِكُ مَا صَادَفْتَهُ
لَوْ دَرَى فِي الْمَهْدِ أَعْمَالُ الْأُلَى
لَأَبَى الْعَيْشَ وَشَاءَ الْمَوْتَ فِي
عِنْدَمَا سَمَّيْتَهُ مِنْ نَصَبِ
حَرَكَتِهِمْ كَهَرْبَاءِ الْغَضَبِ
أُمَّةٍ عَنْ جِدِّهَا فِي لَعَبِ

* * *

كَمْ وَكَمْ قَدْ قِيلَ مَا أَكْفَرَهُ
سَوْفَ يَصْلَى النَّارَ ذَاتَ اللَّهَبِ

إِنْ يَشْنَعُ بَابِنِهِ لَا عَجَبٌ فَهُوَ غَرُّ كَافِرٌ لَا مَذْهَبِي

* * *

لَا تَصَدِّقْ قَوْلَهُمْ يَا وَلَدِي	إِنْ فِيمَا قِيلَ كُلُّ الْكَذِبِ
إِنْ حَبَّ النَّاسُ دِينِي وَحْيَا	ةً بِلَادِي بِاتِّحَادٍ أُرْبِي
وَكِتَابِي الْعَدْلُ مَا بَيْنَ الْوَرَى	فِي بِلَادٍ هِيَ أُمُّ الْكُتُبِ
فَاتَّبِعْ يَا ابْنِي أَبَا أَبْغَضَهُ	وَجَفَاهُ كُلُّ ذِي دِينٍ غُبِي
فَهُمْ أَفَنُ هَذَا الشَّرْقِ مَذْ	حَكَمُوهُ بِضُرُوبِ الرِّعْبِ
جَعَلُوا الْأَدْيَانَ مَعْرَاجَ الْعُلَى	وَمَشَوْا مِنْ زُهْوِهِمْ فِي مُوَكَّبِ
شَرَّدُوا «أَحْمَدَ» عَنْ مَضْجَعِهِ	فَسَرَى لَيْلَتَهُ فِي كَرْبِ
وَدَهَوْا عَيْسَى لِمَا عَلَّمَهُ	وَهُوَ لَوْلَا كَيْدُهُمْ لَمْ يُضْلَبْ

* * *

فَإِذَا مَا مَتَّ يَا ابْنِي فِي غَدٍ	فَاتَّبِعْ خَطْوِي تَفْزَ بِالْأَرْبِ
وَعَلَى لَحْدِي لَا تَنْدُبْ وَقُلْ	آيَةً تَزْرِي بِأَعْلَى الْخُطْبِ
عَاشَ حَرًّا عَرَبِيًّا صَادِقًا	وَطَوَاهُ اللَّحْدُ حَرًّا عَرَبِي

١٩٢٦

(٦) أول نيسان

قلتها بمناسبتها، وقد أكون من عشاق أول نيسان، فلا تقل ما له يدعي البرارة، فاعمل بها، إن أعجبتك، ولا تدني.

قَفْ بِالشَّامِ عَلَى أَطْوَادِ لُبْنَانَ	وَنَاجِ مَبْدَعِ هَذَا الْعَالَمِ الْفَانِي
فَهِيَ الْمَآذِنُ لَمْ تُنَحَّ أَهْلَتُهَا	وَهِيَ الْقَبَابُ وَمَا أَزْدَانَتْ بِصُلْبَانِ
فَفِي الطَّبِيعَةِ صَوْتُ لَا يَضَارِعُهُ	صَوْتُ الْمُؤَذِّنِ أَوْ نَاقُوسِ رَهْبَانِ
وَالْوَحْيُ فِيهَا قَدِيمُ الْعَهْدِ مَنِبْثُ	شَرَارَةٍ قَدْ وَرَاهَا زَنْدُ وَجْدَانِ
دِينِ الطَّبِيعَةِ دِينَ جَلٍّ مَبْدَعُهُ	وَالْكُونُ هَيْكَلُهُ مَا أَعْظَمَ الْبَانِي

* * *

دع الألى فرقوا أبناءه قسماً
ونصبوا من صخور الأرض آلهة
خزعبلات وآراء ملفقة
فالدين سرُّ إله الكون أوجده
قد كان للناس منذ البدء جامعة
هو الموحد لكن الورى كذبوا
يا للغرابة كيف الجهل فرّقنا
إن السماء مشاع الناس قاطبة

وأسجدوهم لأصنام وأوثان
فمرّغوا بثراها شمّ أذقان
تقيّد العقل فيها دون برهان
في خاطر البدء تأليفاً لإخوان
فصار مدعاة تفريق لخلان
فصحّفوا آي إنجيل وقرآن
ونحن في نظر الرحمن سيّان
وليس يا قوم للفردوس بابان

* * *

واحرّ قلباه إن الكذب ساد على
وكيف يُسعدُ شعبُ كلّه كذب
إن يكذب الغرب في هذا ممازحة
هم يُصدّقون شُهور العام قاطبة
شهادة الزور نلقياها بلا وجل
وكم حلفنا على تأييد كذبتنا
وكم شهيد سعى فيه زعانفنا
والكاذب الدون ندعوه بلا خجل
والحر ننفر منه إذ يطارحنا

هذي البلاد وعمّ المشرق الداني
وعنده كلّ يوم بدء نيسان
فما مزاح ابن سوريا ولبنان
وكذبنا راع صمّ الإنس والجان
وكم وشينا لذي عز وسلطان
والحر من لم يفّه يوماً بأيمان
فذلّلوه وكم أودوا بفتيان
ربّ السياسة وهو الغافل الواني
آراءه الغر في سر وإعلان

* * *

يا معشر الشرق والأجيال شاهدة
تعمّدوا الصدق في أقوالكم أبداً
والله لو كان ربي في محاكمتي
لي في الحياة من الآراء أغربها
فالشرق أجمعه قد صار لي وطناً
وديني الحب، والإخلاص مصحفه

دعوا أكاذيب نيسان وشعبان
ولا تحابوا عظيم القدر والشان
محابياً لمت يوم الحشر ديّاني
وفي الغرابة لذات لوجداني
أحيا به وجميع الناس إخواني
وكاهني فكرتي والصدق قرباني

أنا أحكي سفينّة طرحوها وسطَ يَمٍّ من الشقا دون شطّ
إن أردتم تعريف حالي فقولوا لي حظّ من الحياة كخطّي

(٧) رسول الغد

ليس لهذه القصيدة سبب سوى أنني حرمت الوقوف على المنبر زمنًا، ثم عادت حليلة إلى عاداتها القديمة، فقلت هذه القصيدة، وأنشدتها بناء على طلب الجمهور غير مبالٍ بما يحدث، كلّفت الحكومة قائمقام عاليه الأمير توفيق أبي اللمع — رحمه الله — حضور الحفلة فاعتذر، وحقته أن مارون عبود يلزع ولا يأبه، ويهاجم «الدنيا وأنا ما عندي فرقة عسكر»، وكانت مقابلة بيني وبين مدير الداخلية يومئذ السيد صبحي أبو النصر، وأقيمت الحفلة ولم يحضر المير، مع أننا «لطفناها» ولم يكن شيء من القنابل الكبيرة التي خشيها القائمقام.

وسُرّ في طريقك لا تخفّ لوأما	وقلّ الحقيقةً وانبذ الأوهامًا
والرفق بالحيوان لا تلهج به	أفتدّعيه وتظلم الأنامًا
كنّ قائداً إن تستطيع لا فارسًا	بسواه ناط الكر والإقدامًا
فالكون حان والأمني خمرة	والجدُّ ساق والأنام ندامي
خير البنين ابن يسود نفسه	فاعمل وجدّ لكي تكون عصاما
لا تؤمنوا بالحظّ فهو عقيدة	قد عدّها دين الرقيّ حراما
الحظّ لا يلج البيوت وإنما	يلقاك في طرُق الحياة لِمَامًا
وإذا رأيت فقل رأيت ولا تخفّ	جاهر، ولا تكذب ولا تتعَامًا
فالناس يرضيهم مقدّس جهلهم	ويقاومون المصلح الهدامًا
أنسيّت صلبهم المسيح وتركهم	لصًا على سقَطِ المتاع ترَامي
إنّ المسيح سقى الصليب دماءه	فاخضرّ يُثمّر رحمةً وسلامًا
ومحمّد برج الديار مهاجرًا	من قاوموه فنكّس الأვნامًا
فتشبهوا بمسيحكم ونبيّكم	فكلاهما قد حرّرا الأّفهاما
قولوا لقوم حرّفوا آياتهم	كيف الرعاة تفرّق الأغناما

الله للتأليف أوفد رسله
قيثارة أنتم فإن ألفتُم
ما الفرق بين عمامة و«قُلْسُوَّة»
وخذوا الصليب لكم شعار ضحية
والطائفية حاربوا ما اسطعتم
قد مزقت صدر البلاد سهامها
إن تعدّ مارونيتي وطنيتي
لوا الحكم إن دعت الجدارة واعدلوا
لا تعشقوا الكرسي عشق مؤله
وإذا دعا الحق استقبلوا فالفتى
ودعوا ولاة الأمر في أعمالهم
واسعوا وراء الرزق لا يعينكم
ومع الزمان تجدّدوا وخذوا لكم
ليس التجدّد أن ترى متحنّثا
ليس التجدّد بالثياب حديثة
إن التجدّد بالعقول فجّدالـ
يا لابس «الكبريات والغنّباز» لا
هذا شعار الشرق، هذا ثوبنا
هذا لباس محمد وصحابه
هذا لباس يسوع في برّية
هذا لباس الله في ملكوته
كنّا ملوكا يوم كان لباسنا
فاخشوشنوا كجدودكم كي ترفعوا

فعلام تفريق الورى وإلاما
أوتاركم أبدعتم الأنغاما
فدعوا الفوارق تغلبوا الأياما
وخذوا الهلال منارة وإماما
فالطائفية جرحها ما التاما
ردّوا لها في نحرها صمصاما
لبرئت منها ذمّة وذماما
فالله هدّد باللظى الظلّاما
فالعشق يورث أهله أسقاما
إن سيم خسفا لا يلي الأحكاما
فالأوصياء هم ونحن يتامى!
قعد العميد بقصره أو قاما
شرع التطور سنّة ونظاما
ظرفا وتمضغ في الحديث كلاما
زيا ولو اتقننتها هنداما
أفكار والبس إن أردت «الخاما»
تخلّ فكم شمل الرداء عظاما
نحن الألى ملئوا الدنى أحلاما
الأخيار من ساسوا الشعوب كراما
مزجت بعرف تقاه عرف خزامى
فسل المصور عنه والرّساما
خشنا وفقنا المشرقين مقاما
في الشرق لاستقلالكم أعلاما

(٨) ضحك المشيب

تهافت الناس عندنا في هذا العام — ١٩٢٥ — على الوظائف، وسلكوا إليها أدلَّ الطرق وأخسها، فقلت هذه القصيدة، وأنشدتها كأخواتها، ولا فخر.

ضحك المشيبُ فعَبَّستُ أيامي والليلُ أقمرَ فانجلتُ أوهامي
ذهب الشبابُ بمُذهب الأَحلام وغدوت في حرب مع الأيام
فانتابني الهمُّ المقيم المقعد
أنا لا أنوح على الشباب وإنما أبكي على وطن غُلاه تَهْدَمَا
وطن تفرَّق شعبه فتقسَّما ورجاله يتنازعون على السما
والهرُّ في أوطانهم يستأسد
كلُّ يصحح بالمزاعم دينه يرمي بنبل المرجفات قرينه
ترك المطامع تستبيحُ عرينه وبباب من حكموا أدلَّ جبينه
متمرِّغًا، وهو العزيز السيِّد
يفدي الوظيفة بالحياة وما غلا قبحًا لشهم ينحني متذلا
يا أيها العربي، أأنْتَ ابن الأُلى أنفوا فما وردوا المجرة منهلا
أم أنت عبدٌ في الهوان مقيِّد
عذرًا إذا حلَّت هناك ركابُه فالمجد فينا جمَّة طلائه
لا تعذلوه، واعذروا فجنابه ما من يبجلُّه وليس يهابه
أحدٌ بدون وظيفة أو يُحمد
لهفي على شعبٍ يمزقه الحسد وعلى الوظائف كَرَ كَرَات الأسد
كم أحمقٍ بذل الفلوس بلا عدد كيما يقال: جَنَابُه شيخ البلد
يا شيخ، يهنيك العلا والسود
أبني المشارق للأمام تقدِّموا فالنورُ لاح وقد أفاق النوم
فالغرب ما فوق النصورِ يحوم والشرق بات على الحضيض يهوم
وبنوهُ قد هجروا الربوع وشُرِّدوا
وطن تفرَّق شعبه أيدي سبا وبنوهُ قد هجروا الأباطح والربي
لا تعذلوا فالسيل قد بلغ الزبى والحرُّ ينفر إن تألَّم أو نبا

جنب، وبات على قتاد يرقد
يا قوم إن الشرق أصبح لقمةً للطامعين ولن يصادفَ رحمةً
قد أمطرته سما المصائب نقمةً فهبوه من عزم الشبيبة همّةً
يبلى الزمان ومجده يتجدد
ثم انبذوا من باع بالخس الوطن قولوا له بالصيف ضيعت اللبن
يا بائعاً شرف البلاد بلا ثمن يا ميّت الأحياء ألبست الكفن
حيّاً كأنك في حياتك تُلحد
وبكلّ حرّ ألمعيّ بشروا فلمثله علمُ المفاجر يُنشر
أما الألى باعوا البلاد ودمّروا أمجادنا، وعلى العباد تأمروا
فينالهم يومٌ عصيب أسود
يا قوم بأنّ الحق فاتضح الهدى أكذا تبددنا مدى العمر العدى
فالشعبُ إن لم يتحدّ لن يسعدا يقضي طويلَ حياته مستعبداً
وبعنقه «للطارئين» المقود
الغرب زاد بجرأة الضرغام عن حوضه جيش البغاة الطامي
وسلاحنا في الكرّ جيش كلام وفخارنا بالوحي والإلهام
وبالاختراع فخارهم قد شيّدوا
ملل البلاد تشبّهي بالمغرب ودعي الشقاق وبالإخاء تمذهبي
وتعصّبي ما شئت أن تتعصّبي للحق لا للدين هذا مذهبي
فالربُّ يعرفه الجميع ويعبد
ما الخيرُ في القرآن والإنجيل إن أوّلاً للبغض والتضليل؟
أفيمسيان كبائر مصقول تُفري الرقاب به بكفّ جهول
وهما لدنيانا الدليلُ المرشد
لبنانُ يا وطنَ المروءة والنهى يا أيها الجبلُ المعصّب بالسهى
قلّ للذي اتّبع الضلال وما انتهى إن الخيانة ليس يُخفى أمرها
والحق لا تعلو على يده يدُ
بيعوا حقوق بلادكم بيع السلع للمشتريين ومن يزد فيها انتفع
الله من سيف الحقائق إن لمع هتك الضلال ودك بنيان الطمع

ولهولٍ مضربه يشيب الأمر
لهفي على وطنٍ غدا مستعبداً من عهد أدونيس تقهره العدى
إلا الألى افترشوا الجلامد مقعداً للنير لم يحنوا الرقاب تمرّداً
لبنان أين قطيئك المتمرد
مرؤاً كما مرّ الزمان الغادي تركوا الديار مناهل الوراد
يا خجلة الأبناء والأحفاد إن يدعهم لبنان يا أولادي
والكلُّ عن داعي الحميّة هجّد
يا أرزنا المحبوب جبّار الأزل خبّر بنينا عن جدودهم الأول
أيّام كانت تستمّحهم الدول وأُسودهم كانت تكرُّ بلا وجل
كالبحر ترغي في النزال وتزبد
سيعود عهد المجد والحرية وترى بلادي نهضة قوميه
ستعيد ذاك مدارس وطنيه هي منبت الأبناء والذرية
وبها بها قصر الرجاء يشيد
هذي البلاد وما لها من جامع تحيي شبيبته كهذي الجامعه
فبمثّلها نجد الأمانى الضائعه وبها تأخى والأدلة ساطعه
موسى وعيسى والنبيّ محمد
إن شئتُم أن تغنموا استقلالاً رُقوا العقول وعلموا الأطفال
فبذاك نخلق للبلاد رجالا يسعون لاستقلالهم أبطالا
أو لا فليس ليلنا الداجي غدُ

١٩٢٥

(٩) الحركة الفلسطينية الأولى

عنوانها يدل على الأسباب التي أوجت بها، فلا حاجة إلى كلام لا يغني ولا يسدُّ جوعاً، ولكنني أذكر لك شيئاً، وهو أن تلاميذي كانوا «يُضربون» كلَّ عام، احتجاجاً على وعد بلفور، لا يعرفون في ذلك هواة.

بقعة تزهو بثوب قشب
قسّموها دولاً فانقسمت
يا لها مهزلة مثّلها
دولٌ فيهن جمهورية
من ملوك وإمارات ومن
كان يحميها أميرٌ واحدٌ
لعبت فيها أكفُ النوب
يا لأمرٍ مضحكٍ مستغربٍ
في ربوع الشرقِ ذاك المغربي
وبها ما شئتُه من لقب
مضحكات ما أتت في كتب
من بني يعربَ عالي النسب

* * *

من لنا مثل هشام ملگّا
يتمادى ناشراً أعلامه
عمرَ الخطّابِ عُدّ وابعثَ بنا
ليذيقَ «الفيل» حتفًا فيرى
حبّذا صقر قريش داخلًا
حبّذا هارونُ في سدّته
بابن سفيانَ ابتدا الملك العظيم
دولٌ ما فتّ في ساعدها
فليكن تاريخُنا أستاذنا
يفتح الدنيا بسيفٍ يعربي
فوق أوروبا بجيش لجب
مثل صمصام ابن معدي كرب
العرب فتحًا هو أقصى الأرب
باب أوروبا بأبهى موكب
سيّد الدنيا عظيم الرحب
وبالمأمون عصر الأدب
فهو لا ظهور الأجنبي
ذاك أستاذ الفتى والأشيب

* * *

يا بني أُمي «أغدوا» فبكم
زهرة المشرق أنتم وقذى
أنتم آمالنا في مشرق
إن يك الوقتُ عصيبًا قاهرًا
عود إرث الأُمّة المنتهب
ستكونون بعين المغرب
مشرئبٌ إن وثبتتم يثب
فاستعدّوا للزمان الأعصب

* * *

يا فلسطينُ اصبري لا تجزعي
حزت دون الأرض مجدًا خالدًا
بقعة حدّث عيسى آلُه
حاولوا أن يملكوها عنوةً
لك أجر الصابر المرتقب
وإليك الله أسرى بالنبي
فوقها كل حديث عذب
ويح «بلفور» الطموع الأشعبي

لن يمسّوه وفي العرب صبي
أو يبيدوا أمة المطّلب
سوف نلقاهم بحدّ الصلب
سنريهم أيما منقلب
أبنوها نحن إن لم نغضب؟
شعبك المضني طريد الكرب
شعبينا ألا انظر واعجب
عن حدود القدس صرعى الرعب
يا صلاح الدين ردّ الأجنبي
وبأورشليم طه قد سُبّي
أنزلوا الولايات بالمغتصب
ذات زند إن وري يلتهب
وعرين الأسد بين الخشب
فهى عندي بدء عصر ذهبي
كعبة العلم وبيت النجب
شملنا بالرغم من كل غبي
مستعيذاً بينكم زهو الصبي
صورة الابن إلى خير أب
زمن مرّ ولم تهتزّ بي
كنت ذا عود متين صلب
ضيّع الخلف أمانى العرب
عاضدوا الحق يفز بالغلب
جادت الدنيا لكم بالأرب
ليرى عظمى اللواء العربي

ما دروا أن براق المصطفى
يا براق المصطفى نحن الفدى
إن نبا السيف عن الفتك بهم
أغضبوا عيسى وطه جملة
مضرّ غضبتها مشهورة
يا صلاح الدين قم وانظر إلى
أي صلاح الدين لا تفريق ما بين
انظر القوم الألى أرجعتهم
قم من القبر فقد عودتنا
فبأرض النيل عيسى استعبدوا
إن أفاق العرب من غفلتهم
ليس يحيى الشرق إلا فتية
إن يكن للعلم أسد فهم
إن فى نهضتهم آمالنا
يا بني أمة وهذي أمكم
جمعتنا فغدت جامعة
قد دعوتكم كهلكم حتى غدا
ورأى فى كل وجه منكم
أيها المنبر قد طال الجفا
كان بالأمس كبيراً أُملي
فأضاع الدهر آمالي كما
يا بني أمتنا حيّ هلا
واذكروني يا بني أمة إذا
وانصبوا فوق ضريحى علماً

(١٠) إلى ابني محمد

قد استغنيتُ باسمك يا بُنَيَّا
عن اللقب الذي لم يغنِ شيئاً
يسألكني عن المرمى أناسُ
فقلت لهم عليّ وما عليّ

(١١) التجنيد

شاع خبر التجنيد فجزع الناس له، فكانت هذه القصيدة:

خُوضُوا الْمَعَارَكَ وَاطْلُبُوا التَّجْنِيدَا
مَا لِي أَرَاكُمْ تَمَقُّتُونَ وَصَايَةً
وَأَرَاكُمْ مُتَطَلِّبِينَ سِيَادَةً
وَأَرَى الصَّبِيَّ يَتَوَقُّ لاسْتِقْلَالِهِ
وَأَرَى الْخَطِيبَ إِذَا تَسَنَّمَ مِنْبَرًا
وَأَرَى صَاحِفَتَكُمْ يَصُرُّ يِرَاعَهَا
وَأَرَى زَعِيمَكُمْ يَصِيحُ مُطَالِبًا
حَتَّى إِذَا قِيلَ التَّجْنُدُ وَاجِبٌ
أَفْتَطْلِبُونَ مِنْ «الْأَجَانِبِ» عَسْكَرًا
وَاللَّهِ لَوْ بَلَغَ الْجَدُودُ قَعُودُنَا
وَتَبَرَّأُوا مِنَّا وَقَالُوا إِنَّنَا
أَنَّى يَكُونُ الْجَبْنَ مِنْ أَخْلَاقِكُمْ
إِنْ تَطْلُبُوا اسْتِقْلَالَكُمْ فَتَاهَبُوا

أَوْ فَاْمُكِّنُوا لِلْفَاتِحِينَ عَبِيدَا
وَتُقَبِّحُونَ الذُّلَّ وَالتَّقْيِيدَا
قَوْمِيَّةً، لَا تَعْرِفُ التَّحْدِيدَا
تَوَقُّ الْعَطَاشَى يَطْلُبُونَ وَرُودَا
هَزَّ الْبِلَادَ وَأَرْقَصَ الْجُلُودَا
صَرًّا يُخَالُ صَوَاعِقًا وَرَعُودَا
بِحَقُوقِكُمْ، لَا يَذْخُرُ الْمَجْهُودَا
أَجْفَلْتُمْ تَلَوُونَ عَنْهُ الْجِيدَا
يَحْمِي حُدُودَ بِلَادِكُمْ لَتَسُودَا
لَبَكُوا دَمًا تَحْتَ التَّرَابِ مَدِيدَا
لَسْنَا لِمَنْ نَزَعُوا السِّلَاحَ جَدُودَا
وَالْفَتْحُ كَانَ بِبَنِيكُمْ مَعْقُودَا
حَتَّى تَكُونُوا لِلْبِلَادِ جَنُودَا

* * *

أَوَلَسْتُمْ أَسْبَاطَ مَنْ عَقَدْتُ لَهُمْ
أَوَلَيْسَ مِنْكُمْ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ مَنْ
أَوَلَيْسَ مِنْكُمْ خَالِدُ الْأَسَدِ الَّذِي
يَا مَعْشَرَ ابْنِ الْعَاصِ مِنْ أَسْرَى إِلَى

كَفَّ الزَّمَانَ بَيَارِقًا وَبُنُودَا
بِحُسَامِهِ قَهَرَ الْمُلُوكَ الصِّيدَا
دَخَلَ الْعَوَاصِمَ فَاتَحًا صَنْدِيدَا
الْعُلَيَاءِ مُتَّئِدًا يَلْفُ الْبِيدَا

أَفَتَذْكُرُونَ أَبَا عُبَيْدَةَ غَازِيًا
يا للرجالِ أَتَذْكُرُونَ نِسَاءَكُمْ
صِرْنَا كَأَشْبَاهِ الرِّجَالِ وَلَا رَجَا
إِنَّ الدَّمَ الْعَرَبِيَّ فِي أَعْرَاقِنَا
إِنَّا أَلْفْنَا رَغْدَ عَيْشِ حَضَارَةٍ
فَتَذْكُرُوا سَيْفَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
هَذَاكَ سَيْفُ الدِّينِ وَالْفَتْحِ الْمُبِينِ
فَاسْتَبَسُّوْا فِي الذُّودِ عَنْ أَوْطَانِكُمْ
وَمَعَ الزَّمَانِ تَجَدَّدُوا قَدْ هَانَ مِنْ
ضُمُّوا إِلَى الْمَجْدِ التَّلِيدِ طَرِيقَهُ
وَتَأَهَّبُوا لِلْحَادِثَاتِ كِتَائِبًا
أَيْنَ الْمَوْحِدِ فِي الْجِهَادِ صَفُوفَكُمْ
فَنَرَى بِكُمْ تَحْتَ الْبَنُودِ عَصَابَةَ
فَذَرُوا التَّشْيِيعَ لِلْمَذَاهِبِ وَاجْعَلُوا
أَوْ لَا فَأَدُّوا لِلْأَعَادِي عَنْ يَدٍ

يَغْشَى الثَّغُورَ وَلَا يَخَافُ سُودًا
فَبِوَقْعَةِ الْيَرْمُوكِ صَلَّنَ أُسُودًا
لَ إِذَا النَّفِيرُ دَعَا وَصَاتَ شَدِيدًا
أَلْفَ الْحَضَارَةِ فَاسْتَحَالَ صَدِيدًا
حَتَّى نَسِينَا مَجْدَنَا الْمَوْءُودًا
كَمْ فَلَّ جَيْشًا وَاسْتَبَاحَ حُدُودًا؟
يَخْطُ لِلْمُسْتَسْلِمِينَ بُنُودًا
مَنْ مَاتَ لِلْأَوْطَانِ عَاشَ شَهِيدًا
لَا يَبْتَغِي التَّجْوِيدَ وَالتَّجْدِيدَا
فَالْمَجْدُ يُعْشَقُ طَارِفًا وَتَلِيدَا
لَا تَرَهَّبِ الْإِنْذَارَ وَالتَّهْدِيدَا
فِيَوْحِدِ التَّثْلِيثَ وَالتَّوْحِيدَا
دَانَتْ بِأَقْنُومِ الْحَيَاةِ وَحِيدَا
الْهَدَفِ الْعَرُوبَةِ تَبْلُغُوا الْمَقْصُودَا
جَزِيَاتِهِمْ وَاقْضُوا الْحَيَاةَ عَبِيدَا

* * *

يا أيها العرب الكرام استيقظوا
لا تطلبوا حقًا بغير مَهْنَدٍ
لا، لست بالعربيِّ يا هذا إذا
فالنار إن لم تستطع إخمادها

الفجر لاح فمن يطيق هجودا
عضب يفلُ المعضلات حديدا
لم تتخذ يومَ الكريهة عيدا
أكلتك ألسنها فكنت وقودا

(١٢) تحية الطلاب

جاءني تلاميذي من العراق، والحجاز، وشرقي الأردن، وفلسطين متأخرين، وكان عذرهم جميعاً تأخر «الباص» جواز السفر في القنصليات، وكُنَّا على موعد من الكلام فقلت هذه القصيدة:

وَعَلَى مَنْ مَثَلْتُمُوهُ التَّحِيَّهَ	يَا بَنِي أُمْنَا، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ
بِكُمْ نَشَاءُ أُمَّتِي الْعَرَبِيَّهَ	إِنْ أَحْيَيْتُكُمْ فَإِنِّي مُحْيِي
قَتَلَتْهُ السِّيَاسَةُ الْمَغْرِبِيَّهَ	أَنْتُمْ كُنْتُمْ الْحَيَاةَ لِشَرْقِ
أَيَقْظُوا فِيهِ نَعْرَةَ دِينِيَّهَ	كُلَّمَا شَاءَ نَهْضَةٌ وَاتِّحَادًا
فَاسْتَعِيدُوا أَمَجَادَنَا الْيَعْرَبِيَّهَ	فَعَدَا الْعَرَبُ فَائِزًا وَرَسَبَنَا
فَأَنْتُمْ لِلْمَجْدِ خَيْرُ بَقِيَّهَ	انْهَضُوا نَهْضَةَ الْأُسُودِ إِلَى الْمَجْدِ
قَطَّعَتْهُ الْفَوَارِقُ الْمَذْهَبِيَّهَ	نَحْنُ أَعْضَاءُ جِسْمِ شَعْبٍ عَظِيمِ
مَنْ دُرُوسِ الْحَيَاةِ وَالْوَطَنِيَّهَ	نَحْنُ شَعْبٌ مَا عَلِمَتْهُ اللَّيَالِي
عَيْسَوِيٌّ، تَبًّا لَهَا وَطَنِيَّهَ	غَيْرِ هَذَا مُحَمَّديٍّ وَهَذَا
بِاتِّحَادٍ عَلَى الشُّعُوبِ الْقَوِيَّهَ	فَأَفْتَرَقْنَا وَالْحَالُ تَقْضِي عَلَيْنَا

* * *

بِالَّذِي فِي يَدَيْهِ نَفْسُ الْبَرِيَّهَ	يَا بَنِي الْعَرَبِ، بِالنَّبِيِّ، بَعِيسَى
قَيْدَ بَاعَ فِيهِ لَنَا الْحُرِّيَّهَ	فَتَشُّوا، فَتَشُّوا الْبِلَادَ، أُرُونِي
هَذِهِ مَلَكُنَا فَيَا لِلْبَلِيَّهَ	مَلَأُوا الْبَرَّ وَالْبَحَارَ وَقَالُوا
بِجَوَازٍ إِنْ لَمْ تَشَأْ الْقُنْصُلِيَّهَ	فَفَقَدْنَا حَقَّ التَّزَاوُرِ حَتَّى
وَعَرِيبُ الدِّيَارِ مَوْلَى الرَّعِيَّهَ	قَدْ عَدَوْنَا فِي أَرْضِنَا غُرَبَاءَ
فَسَلَامٌ عَلَى الدِّمَاءِ الزَّكِيَّهَ	ذَاكَ أَمْرٌ لِأَجْلِهِ تَارَ قَوْمِي

* * *

فَانْبِذُوا الْخَلْفَ تَدْرِكُوا الْأُمْنِيَّهَ	يَا بَنِي الْعَرَبِ إِنْ أَرَدْتُمْ حَيَاةً
عَلَّمَكُمْ غَيْرَ الدُّرُوسِ السَّنِيَّهَ	إِنَّ قُرْآنَكُمْ وَنَجِيلَكُمْ مَا
وَلَكُمْ بِالصَّلِيبِ رَمْزُ الضَّحِيَّهَ	فَلَكُمْ بِالْهَلَالِ رَمْزُ اهْتِدَاءِ

إِنْ يَكُنْ ذَا شَعَارُكُمْ فَلِمَ إِذَا
أَرْسَلَ اللَّهُ لِلنَّبِيِّينَ
عَلِّمُوا النَّاسَ رَحْمَةً وَإِخَاءً
مَا هُمْ غَيْرُ مُصْحَفٍ كَتَبَتْهُ
فَفَهَمْنَا غَيْرَ الَّذِي قَصَدُوهُ
وَاخْتَلَفْنَا عَلَى السَّمَاءِ ضَلَالًا
مَا لَنَا وَالسَّمَاءِ. نَحْنُ عَلَى الْأَرْضِ
آفَةُ الشَّرْقِ كُلِّهِ رُؤَسَاءُ
قَيِّدُوا النَّاسَ بِالضَّلَالِ حَتَّى
يَحْسَبُونَ الضَّعِيفَ عَبْدًا رَقِيقًا
وَالْمُبَادِي كَالثَّوْبِ طَيًّا وَنَشْرًا
لَا يَغْرُنُكُمْ ذَنْابُ غِرَاتٍ
كَمْ يَضُمُّ الدِّيْبَاجُ خَلْقًا دَنِيًّا

تَقْتُلُونَ الْإِقْدَامَ وَالْعَبْقَرِيَّةَ
فَكَانُوا هُدًى الْعُصُورِ الدَّجِيَّةِ
لَا شِقَاقًا وَقَسْوَةً بَرَبْرِيَّةَ
فِي الْأَعَالِي لَنَا الْيَدُ الْعُلَوِيَّةُ
فَضَلَلْنَا فِي ظُلْمَةٍ أَبَدِيَّةِ
وَاخْتَكَرْنَا الْمَوَاطِنَ السَّمَوِيَّةِ
حِصْنِ أَسَارَى الْمَطَامِعِ الْأَشْعَبِيَّةِ
رَفَلُوا فِي الْمَطَارِفِ السُّنْدُوسِيَّةِ
ذَلَّلُوا مِنْهُمْ النُّفُوسَ الْأَبْيَّةِ
لَهُمُ الْحَقُّ فِيهِ كَالْمَلِكِيَّةِ
هِيَ لِلْخَلْقِ بُكْرَةٌ وَعَشِيَّةُ
فَتَكُنْتُ بِالْحِطَّائِرِ الْأَدَمِيَّةِ
كَمْ إِبَاءَ تَحْتَ الْعِبَاءِ الزَّرِّيَّةِ

فَأَنْشَأُوا مِثْلَمَا نُرِيدُ رِجَالًا
وَحَذُوا الْعِلْمَ لِلنُّهُوضِ سَلَاحًا
آفَةُ الْعَرَبِ جَهْلُهُمْ عِلْمَ هَذَا
جَمَّلُوا النَّفْسَ بِالْعُلُومِ لِنَرْقَى
إِنْ يَكُنْ عِلْمُكُمْ شِعَارَ التَّرَقِّي
إِنْ يَعْدُ عِزُّنَا أَهَابَتِ عِظَامِي
جَدَدْتُ مَجْدَنَا فَحَسْبِي أَنِّي

تَتَحَقَّقُ آمَالُنَا الذَّهَبِيَّةِ
قَاطِعًا لَا سُيُوفُنَا الْيَمْنِيَّةِ
الْعَصْرِ فَاسْعَوْا وَرَاءَهُ بِحِمِّيَّةِ
ذُرُواتِ الْمَفَاحِرِ الْمَدْنِيَّةِ
تَتَحَطَّمُ قُيُودُنَا الْأَجْنَبِيَّةِ
إِنْ نَمْتُ نَحْنُ عَاشَتِ الذَّرِّيَّةُ
مُتُّ، فَلْتَحْيِ أُمَّتِي الْعَرَبِيَّةِ

(١٣) رمز الخلود

تعود التلاميذ المنتهون أن يزرعوا في دار المدرسة شجرة، يضعون عند أقدامها بلاطة من رخام محفوراً عليها تاريخ العام، وفي هذه السنة شاءوا أن يتفننوا فجاء الأمير نهاد

أرسلان بشجرة أرز، وحفروا على البلاطة رسم زيتونة ونخلة، وترأس معلمهم الحفلة فقال ما تسمع، أما ما أشار إليه في ختام أبياته فهو موت زوجته الحديث العهد.

رَمَزَ الْخُلُودِ تَجِيَّةً وَسَلَامَ
نَقَشُوا لَهُمْ فِي الصَّخْرِ رَمَزَ تَأْلَفِ
طَبَعُوا ائْتِلَافَهُمْ عَلَيْهِ فَأَنْطَقُوهُ
فِي صَقْلِهِ رَمَزٌ إِلَى أَخْلَاقِهِمْ
فَكَفَى بِهِ رَمْزًا لَوْحْدَةِ أُمَّةٍ
مَنْ لِي بِيَوْمٍ إِنْ تَمَایَلَ أَرْزُهَا
وَهَفَا الْعِرَاقُ إِلَى لِقَائِهِ بِاسْمًا
هَذَا هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي نَضُبُّو إِلَيْهِ
أَهْلًا بِيَوْمٍ فِيهِ يُجْمَعُ شَمْلُنَا

فَبَنُوكَ حَوْلَكَ خَاشِعِينَ قِيَامُ
سَتَحَقَّقَنَّ وَجُودُهُ الْأَيَّامُ
بِالْإِخَاءِ الْحَقِّ وَهُوَ رَخَامُ
وَبَيَاضُهُ لِلطُّهْرِ فِيهِ كَلَامُ
لَعِبَتْ بِهَا الْأَعْرَاضُ وَالْأَوْهَامُ
ضَحِكَ الْحِجَازُ لَهُ، وَهَشَّ الشَّامُ
مُتَهَلِّلًا وَاهْتَزَّتِ الْأَمْزَامُ
فَحَبَّبَا لَوْ صَحَّتِ الْأَحْلَامُ
وَتَوَحَّدَ الشَّارَاتُ وَالْأَعْلَامُ

* * *

سَيَكُونُ، إِنْ كُنْتُمْ شَبَابًا نَاهِضًا
فَدَعُوا الشُّيُوخَ فَإِنَّ أَسَّ مَصِيرِنَا
فَانْبُؤْنَا لَنَا صَرَحًا حَدِيثًا طَرِزَهُ
وَحُذُوا مِنَ الْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ مَا
كَالْغَرْبِ كُونُوا مُقَدِّمِينَ إِلَى الْعُلَا
بِالْجِدِّ يَحْيَا بِالرِّفَاقَةِ ثَغْلَبُ
فَاسْعُوا شَبَابًا لِلْفَلَاحِ وَجَاهِدُوا
إِنَّ الْحَيَاةَ شَدِيدَةٌ وَطَائَتُهَا

فِي رَاحَتِيهِ النَّقْضُ وَالْإِبْرَامُ
يُبْنَى عَلَى اكْتِنَافِكُمْ وَيُقَامُ
جُمَعَ النَّصَارَى فِيهِ وَالْإِسْلَامُ
فِيهِ الْإِخَاءُ وَالْأَفَّةُ وَوَيْئَامُ
فَجْدُودِكُمْ رَقَاهُمْ الْإِقْدَامُ
وَيَمُوتُ إِنْ يَتَكَاسَلَ الضَّرْغَامُ
فَجْهَازُكُمْ تَحْلُو بِهِ الْأَلَامُ
وَبِهَا يَسُودُ الصَّابِرُ الْمِقْدَامُ

* * *

إِنَّ اللَّسَانَ مُقَصِّرٌ عَمَّا انْطَوَى
فَاعْفُوا إِذَا قَصُرَتْ آخِرَ مَوْقِفِ

فِي خَاطِرِي وَاسْتَعَصَتِ الْأَقْلَامُ
إِنَّ الْمَصَائِبَ لِلرِّجَالِ لِحَامُ

(١٤) بمناسبة معرض الكلاب ١٩٣٢

قُلْ لِلَّذِي يَشْكُو تَبَارِيحَهُ لِلرُّزْقِ فِينَا أَلْفُ بَابٍ وَبَابٍ
قَدْ أَسْرَفَ الدَّهْرُ بِنِعْمَائِهِ فِي أَرْضِنَا حَتَّى أَعَزَّ الْكِلَابُ

(١٥) رمز

تُمَثِّلُ الجامعة الوطنية بأُمِّ حولها بنوها وهي منكبة على تعليمهم أربعتهم، وهؤلاء الأربعة بطرس، ومحمود، وسلمان، وموسى هم رمز إلى من ينضون تحت لوائها من أبناء الملل جميعها.

برحت ذكاء الأوج، أوج سمائها فاصفرَّ وجه سنائها وبهائها
لَمَتْ شعاع جمانها بردائها عن أرضنا ورمته في دأمائها
ومشت تَتِمُّ الرحلة الجويه
شهد النهار غروبها ورأى الخطر يبدو لعينيه ولم يغنِ الحذر
والياس دَبَّ بقلبه حتى انتحر وجرت دماه فكُونت تلك الصور
بين الغيوم الحمر كلَّ عشيهِ
وأطلَّ مبهوتًا من الجزع القمر فكأنه هيمان أضنته الفكر
عشق الغزالة وهو في سنِّ الصغر فبحبِّها كم مات يومًا وانتشر
لكنه ما فاز بالأمْنِيَّة
فجلست وحدي صامتًا أَتَأَمَّل طورًا أعود إلى الصواب وأذهل
وحي الطبيعة، وحي حق منزل أنعم بها يا أيها المتأمل
نظرًا ففيها الحكمة الأزليه
وإذا بِأُمِّ تحت أضواء القمر وعلى محيّاها بدا ضحك السهر
أُمُّ يحيط بها بنوها والثغر متبسِّم عن مثل أسلاك الدرر
وحنانها كأشعة ناريهِ
أُمُّ وما أحلى الأمومة تعطف فهناك حبٌّ لَمْ يَشْبُهُ تكلف

أُمُّ حَوَالِيهَا بَنُوها أَوْقَفُوا هَذَا تَعَلَّمَهُ وَذَاكَ تَثَقَّفَ
 لِّلَّهُ دَرُ الْأُمِّ مِنْ كُلِّيَّةٍ
 قَدْ رَاقَنِي بَلْ هَزَّنِي ذَاكَ الْعَنَا وَسَرَى إِلَى قَلْبِي التَّرَجِّي وَالْمَنَى
 فَسَأَلْتُ مَنْ هَذِي، فَقَالُوا أُمْنَا دَارُ الْعُلُومِ، أَجَلْ، لَقَدْ بَنَيْتُ لَنَا
 فِي الشَّرْقِ جَامِعَةَ النِّهْيِ الْوُطْنِيَّةِ
 فَهِيَ الَّتِي سَتَحَقِّقُ الْأَمَالَ حَقًّا وَتَخْلُقُ لِلْبِلَادِ رِجَالًا
 فَانْظُرْ تَشَاهِدْ حَوْلَهَا الْأَشْبَالَ يَتَهَيَّئُونَ لِيَدْرِكُوا اسْتِقْلَالَ
 حَسَبِ الْعَرُوبَةِ هَذِهِ الْجَنْدِيَّةِ
 فِي سَلَكِهَا مِنْ كُلِّ أَقْطَارِ الْعَرَبِ نَظَّمَتْهُمْ عَقْدًا كَأَسْلَاكِ الذَّهَبِ
 وَسَيَصْرِفُونَ الْعُمْرَ سَعِيًّا لِلْأَرْبِ حَتَّى تَرَى شَعْبًا وَلَيْسَ بِهِ شَعْبُ
 مَتَفُوقًا بِخِلَالِهِ الْمَضْرِيَّةِ
 فإِلَى الْأَمَامِ إِلَى الْأَمَامِ تَقْدِمِي وَجُنُودَ عِلْمِكَ لِلْمَوَاطِنِ نَظَّمِي
 يَا مَلْجَأَ فِيهِ الشَّبِيَّةُ تَحْتَمِي لَا زَالَ نَجْمِكَ فَوْقَ كُلِّ الْأَنْجَمِ
 فَلَأَنْتِ جَامِعَةُ النِّهْيِ الْعَرَبِيَّةِ

(١٦) المعركة الفاصلة

في حزيران سنة ١٩٣٣ كانت معركة أدبية فاصلة في لبنان، وكانت ساحتها الجامعة الوطنية، كان ذلك في يوبيل المدرسة الفضي، فتمثلت في الحفلة الكبرى جميع السلطات والمذاهب، فعن المندوب السامي ناب الكونت دي سالان، وممثل محافظ جبل لبنان الجمهورية اللبنانية، واستناب غبطة البطريرك الماروني نائبه المطران عقل، وحضر سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية بنفسه.

كان خطيب الحفلة فيلسوف الفريكة أمين الريحاني، وكان لأمين — رحمه الله — كل عام، كلمة يقولها ويمشي، فكانت حملته — ذلك اليوم — على الشاعر بشارة الخوري فندد بنواحه وبكائه على الهوى والشباب والأمل المفقود، فحملت علينا الصحف بعد ذلك تَنْصُرُ الشاعر أبا عبد الله، حتى حَضَّتْ إحداها المندوب السامي على إقفال مدرسة يقال فيها مثل القصيدة التي تَقْرُؤُها فيما يلي، ثم ظهر كتاب أمين «أنتم الشعراء» وظهر كتاب آخر رُدَّ به عليه وعنوانه «نحن الشعراء»، وكفى الله المؤمنين القتال.

هذه الدار، فادخلوها وحيُّوا
عظّموا هذه البساطة، فالزخرف
بين جدرانها تَرَدَّدُ رُوحُ
والنبي المختار «أحمد» أتاها
فتآخى «الجميع» تحت لواها
ورأى الناس في قلوب بنيتها
دينها الحبُّ، والكتاب اتحاد
فهي صوفيَّةٌ تعالت بطوِّ
بردي والفرات والنيل والأردنُ
وبها زمزمٌ تمازج قاديشا
والهلال السنِّي ضَمَّ صليبا
ذاك رمز الهدى، وهذا شعار
وحَّدت شملهم وكان بديداً

ألمعياً أشادها، فأصابا
لا يجعل الكتاب كتابا
قد حباها المسيح عزمًا مذابا
بيانا ومنهجًا وثابا
كجنود تلقى الصفوف غضابا
بيعةً ضم صدرها محرابا
وبه الضادُ تجمع الأعرابا
قد أظْلَّ الأبدال والأقطابا
تجري في صحنها أترابا
فيأوي النخيل والأرز غابا
فرأينا بنيهما أحبابا
التضحيات التي تذلل العقابا
وكستهم من روحها جِلْبَابا

* * *

هذه داركم، وقِيمها اليوم يؤدي
هذه داركم فإن تعضدوها
معهد العلم هيكال الوطن الأقدس
إن تفرّقكم المعابد فالمعهد
فارفعوا راية العلوم نهىً
كان مأوى الغزاة أمس البوادي
كان أمس السلاح سيفًا ورمحًا
فإلى العلم إن طلبتم سلاحًا
علّم العالمين بالقلم الله
ملأ الأرض بالملايين تُحصى
كم صبيٌّ مشى يقود بعيرًا
وحمارٍ لجهله ركبوه
كم ضعيفٍ يصطاد ليث عرينٍ

عن ربع قرنٍ حسابا
نطح الأفق روقها والسحابا
فاخشع بصره هيّابا
بيت يوحد الأعرابا
لارتقاء المواطن الأسبابا
وغدا اليوم حصنها الكُتّابا
إنما اليوم صارَ غارًا هبابا
وانبذوا القوس واهجروا النشابا
وفيه هدى العباد الصوابا
ولبعض الأفراد تحنو الرقابا
وبعيرٍ لجهله ما أبى
فمشى فارها، فهزّوا الركابا
مستخفاً ببأسه لن يهابا

إن رأيت الإنسان يخترقُ البحر
لا تعللْ بالقوة الفوز فالقوةُ
فالحسام البتار إن سلَّه الغرُّ
وعصا الحاذق المدرب تفري
فأديسون لم يكن كأنيبال
وعظيم الأجيال سبتور ما
فإلى العلم إن طلبتم فلاحًا
إن ماء البحار إن لامسته
وفي الجوَّ وطَّد الأطنابا
عمياء لا تريخ الصعابا
كهام، وليس يفري الثقابا
فرية السيف، فاسألوا الضرابا
قويًا مبارزًا محرابًا
استلَّ حسامًا ليقتل الميكروبا
من توخَّى الفلاح بالجهل خابا
أنمل العلم يستساغ شرابا

إلى المتخرجين

يا بنينا، سيروا إلى معهد الدهر
إن أقلامكم أدقُّ أداة
فاشحذوها وسننوها تصدُّوا
فهنا منسج وأنتم خيوط
ليس هذي الصفوف الأسطورا
أسعفونا لكي تكونوا كتابا
تلمذ الأنبياء من قبلنا الناس
وأرانا نتلمذ اليوم نشئًا
ديننا اتحاد أممتنا الغراء
فعلى عاتق الشبيبة تُبنى
أدب الضعف حاذروه جميعًا
أدب الضعف حاذروه فهذا
كان أجدادنا لسانهم السيف
فلماذا أرى بنيتهم حيارى
أذن الظلم لا تصيخ لباك
وخوضوا على العلوم العبابا
إن تعلَّمتم استحالت حرابا
بشباها عن الحياض الذئابا
أسعفونا نمتن الأثوابا
سنؤدِّي للشرق منها خطابا
يقرأ العز فيه بابًا بابا
فراضوا العقول والألبابا
لبلاذ ينوبها ما نابا
فكونوا أنصاره والصحابا
وحدة قد تمزقت أرابا
لا تنوحوا قصورك والقبابا
مورفينُ يسمم الأعصابا
وكانوا للمستجير الجوابا
ملئوا الأرض لومة وعتابا
فخذ الحقَّ عنوةً واغتصابا

يستبيح الحمى إذا الليثُ غاباً
لا تنح فوق ما استحال خراباً
ودع اليوم ناعباً والغراباً
تروه رغم القوى غلاباً
يدخل إلا من يقرع الأبواب
يفتحوها فحطّموا الأخشاب
يملاً السهل بطشه والهضاب
معشر العرب نكره الأرباب
رجلاً تناقشوه الحساب
تفنى، إن التخشن ذاب
الدين، فالجار إن دعوتهم أجاب
في جحيم بأرضنا أغراباً!

كن قوياً تَسُدْ فَإِنَّ ابن آوى
يا فتى الشرق كن قوياً جسوراً
كنْ كَنَسِرْ يَرْقى الْفَضَاءَ صموتاً
ناصروا الحقَّ حيثما حصص الحق
جاهدوا، جاهدوا، وجدّوا فلا
فاقرعوها قرعاً عنيفاً وإن لم
من يشأ أن يكون ربّاً مطاعاً
فانصحوه يبغى سوانا فإننا
إن تعلّمتم وعاركتُم الدهر
واحذروا وصمة التَّخَنُّثِ فالأمة
احفظوا الجار، وانبذوا نعرات
أقتالاً على السماء، ونحيا

* * *

فسأصلى سعيها واللهابا
أنا لا أنت سوف ألقى العذابا
أو لتوما، فالعيش في النار طابا
وإن كنت كوثرًا وملابا
بايع «الشيخ» أو أطاع البابا
وعليها سأطبق الأهدابا

يا ابن عمي، إن كانت النار حظّي
فاتركني على الثرى مستريحاً
إن تكُ النار حصّةً لابن رشيد
لست أهواك يا سماء مع البله
مذهبي في الحياة حبُّ ابن عمي
عربيُّ قبل المسيح وطه

* * *

فهي من جونا تبذ الضبابا
وسمونا والمجد للشرق آبا
حبّ أوطاننا فحمداً أصابا
لسوانا فلتصبحن خرابا
لبلادي، ولو نطحت السحابا
من بلادي ولست أخشى عقابا

لا رقيّ يرجى بدون علوم
إن يفق عدّها الهياكل فزنا
معهد العلم إن يعلم بنينا
معهد العلم إن تعلم بنينا
متّ فما أنت معهداً أبتغيه
قلت ما قلت لا أرجي ثواباً

* * *

زواج

أكثر الله في البلاد صروحًا مثل هذا، يوحد الطلاب
فليعيش فليعيش، ليحيى طويلًا ابق يا صرح بعدنا أحقابًا

١٩٣٣

فِي سَبِيلِ الْإِسْتِقْلَالِ

(١) فَرَنْسَا وَالْعَرَبُ

قلتها سنة ١٩٣٣ مخاطبًا بها المندوب السامي الكونت دي مارتل، وقد ترجمت إلى الفرنسية ونشرتها جريدة «لأسيري»، فأجاب فخامة المندوب جوابًا طيبًا، ولكن الشعر المسكين يعجز عن توجيه خطي الساسة.

لم يدعْ مَجْدًا، طريفًا وتليد
نفدَ المجدُ — إذا رمتِ المزيد
ونضتْ يمينك سَيْفًا للعنيد
جَبَّهَتْهُ، ناوَحَ البرجَ المشيد
الحربُ كالهوجاءِ، عمياءَ شرود
يُنْبِتُ الغارَ لأبناءِ الخلود
موكبِ العرسِ، وما حولَ اللحد
تَلِدُ الأبطالَ في كلِّ العهد
برحتِ كالغيبِ، حبلى بوليد
الحارثُ الفدُّ من الخصبِ برود
وبالأزهارِ أفنانًا تجود
نصرةُ الحق، إلى أقصى الحدود
شريدٌ، أمِنَ البغيَ الشريد

إنَّ تاريخكِ تاريخُ الوجود
فاخلقِي مجدًا جديدًا — فلقد
رفعتِ يسراكِ مشعالَ الهدى
أنتِ «كالسين» إذا عاصفةُ
دعةُ العذراءِ في السلمِ، وفي
تمطرينِ الأرضِ غيثًا أحمرًا
يا فتاة النصرِ، ما أبهاك في
أنتِ أُمُّ متئم، ما فتئتِ
ملأتِ أبنائها الدنيا وما
تربةٌ طيبةٌ، ألبسها
تنبتِ «الشوك» سياجًا للرياضِ
أُمَّةٌ جبارةٌ تنهضها
حرمُ الأحرارِ، إن يَأُوْ إليه

ضمد الجرح وتحطيم القيود
حتى لا تني عنها تذود؟
المثل الأعلى قديماً وجديد
كالنسور الصيد في هام الصرود
كلهم للحق والعدل جنود

خُلِقَتْ رَاحَتُهَا ظُمَأَى إِلَى
أُتْبِنْتُ، يَا تُرَى، حَرِيَّةَ الْأَرْضِ
أُمَّةً وَثَابَةً، وَجْهَتَهَا
يَتَلَقَى فِي «الدُّرَى» أَبْنَاؤُهَا
طَرَقَ شَتَى، وَقَصَدَ وَاحِدَ

العرب

دول الأرض حروراً كالوقيد
أيّ بركان، شظاياها القدود
ومشى الرعب بأعصاب الوجود
من قريش، أكلها كان القديد
أسس الشورى على الصخر الوطيد
من أتاها «عُمَرُ» وابن الوليد
أُنْبَتَتْ مِثْلَ هِشَامٍ وَالرَّشِيدِ
يستطيب الخوض في المرعى الجهد
فهما جِلْفَانِ، والدهرُ شهيد
ومشوا بالشرع خَفَاقَ البَنودِ
أدب العالم كالقنين الفريد
نكرها الخالد في كل صعيد

أمة هبّت من الصحرا على
ألّفت أجزاءها، فانفجرت
فهوى كسرى، وولّى قيصر
أُمَّةً وَحَدَهَا «ابن امرأة»
كره الأملاك، كهلاً، فبنى
بذر الإيمان في الأرض التي
فاستهلّت دولةً باهرةً
فزها الملك بشعب باسل
بايعوا الفتح على الموت به
حملوا التوحيد في أروانهم
فتحوا واستعمروا واصطهروا
قد مضت دولتهم لكنما

النيزك الرائع

مَا شَاءَ وَوَفَاهُ الْخَمُودُ
الهارب في الأفق المديد

نيزكٌ أوقده الله فأرعِبَ
وهل الدولة إلا عبدة النيزكِ

تترك «الفنَّ» تراثًا خالِدًا ليس إلا الفن ميراث الجدود

* * *

كم أَدال الله من شعب، وما فني الشعبُ، ولو عاش طريد
وحدةُ الأُمَّةِ لا تفنى، وكالنار تحيا، حقبًا، في كل عود
فإذا استيقظ منها «قبسُ» عبقريُّ، ألَّهَبَ الغابَ النضيد
جمرةً كامنةً في موقدِ الأزل الذاكِ، لها الذكرى وقود
خاب من يطمع في إطفائها ولها التاريخُ ضرًا شديد

الأمس واليوم

يا ابن «دي مارتيل» هذي أُمّتي ابنةُ الفطرةِ والرأي السديد
كنتمُ كفؤًا لها في فجرها الراعبِ البسّامِ هزءًا بالسدود
فصديقًا وعلى السدة هارون والمأمون، في العهد السعيد
ثم حلفًا منذ أعوام خلت أنسيتم «عهد» ذِيَاك «الشهيد»
عهدنا المبرم لا ننقضه ولَكُم متنا على دين العهود

إلى العميد

أيُّها الآتي إلينا، مرحبًا باسمِ ثالثِ الوَثِّ له طابَ السجود
أمل الشام وهل، نعني سوى أملِ الشام، إذا قلنا العميد
أبرز «الرق» الذي يبدي لنا من فرنسا، وجهها الحرَّ المجيد
أبرم «العهد» في الشام فكم قَطَّعت سعيًا إليها من وريد
حسبها مجدًا دمٌ مهدورٌ فدَمُ الأجدادِ برفيرُ الحفيد

* * *

كل ما في الكون مفطور على طلبِ استقلاله يأبى الجمود

هذه الأطيارُ لا تنفكُ في
تنشدُ الحرِّيَّةَ الخضراءَ، في
يخرج الابنُ على والده
نزعة المرءِ إلى استقلاله

المحبس المخضَّل، تُبدي وتُعيد
القفصِ الأزرقِ لا تخشى الرصيد
إنْ رأى استقلاله رهْنُ الجحود
فَتَنَّتْ «حواء» لا الصلُّ اللدود

إلى فرنسا الحرة

أيها الديكُ، الذي يستقبلُ الفجر
أفلا تنبئنا عن فجرنا
هيه، يا بوتقةَ الدهر، اصهري
حبِّدًا نارك إن تَلَنَهم الدرهم
حبِّدًا مبضعك القاسي إذا
سكَّ التجديد، شقي أرضنا
أيُّها الأحرار، هذي كفُّنا
إن فتح الأرض أمرٌ هيِّنُ

مزهواً بترجيع النشيد
وهل العهدُ به منَّا بعيد
هذه الأجسامُ للجسم العتيد
الزائفُ، رفقا بالنقود
شق منا الجلد نزعا للصديد
كي يطرَّ النبتُ وامضي بالحصيد
فاطلبوا فينا أصدقاء لا عبيد
فافتحوا القلبَ ورفقا بالجلود

(٢) نهضة الشرق

نُظمت حين حمي نضال الأقطار العربية، للتخلص من معاهدات هي بالقيود أشبه.

أرى العُربَ تخلع أكفانها
ففي كلِّ قطرٍ رجالٌ صلابُ
فهذي الكنانةُ في غمرة
وقد أسمعت شرقنا صيحةً
تكادُ تُزلزلُ أهرامها
تضحِّي لتحمي دستورها

وتفتح للنور أجفانها
تُثيرُ على الرقِّ بركانها
الحياةُ تُعارك طوفانها
يقاسي أبو الهول أشجانها
البلايا وتجرفُ أطيانها
ودستورها إن تصُنَّ صانها

وهذي فلسطين كم جاهدت
ستجني ثمار الجهاد الشريف
وهذي العراق تحاول نقضاً
وأما الحجاز مقام النبي
فسوف تظل لنا قبلة
أمهد العروبة شلت يد
وسورية في اضطراب عظيم
فهذا يُنادم أعداءها
لقد رسنوها لمن رامها
بلادي وقفت عليها دمي
وإني أهيج لتذكارها
فهل تستقل، نعم تستقل
فما العلم إلا منار الشعوب
فيفرحها قرع أجراسها
وتلقى البلاد اتحاداً به
فيهوى الحنيفي إنجيلها
ويذهب تفريق أسمائها
فيمشي الفرات إلى نيلها
ويصبو النخيل إلى أرزها
أما من ينبئ أوطاننا
أعدوا الرجال لتحريرها
كهولاً تصافح بيض الطبى
فيا سائلي عن فتى باسل
شباب الشام، ونشر العراق
فهم من نعد لصون البلاد

تقيم على الحق برهانها
ويخذل ربك من خانها
لعهد ترى فيه خذلانها
التي شرف الله جذرانها
تحت لها الناس أظعانها
إليك تصوب طغيانها
وقد فرق المكر عيدانها
وذاك يسامر ديانها
فمن ذا يقطع أرسانها؟
كما تقف الناس رنانها
متى تذكر الناس أوطانها
متى نور العلم أنهانها
يوحد بالروح أديانها
كما تتعشق آذانها
تضم الأهل صلبانها
ويهوى المسيحي قرآنها
ويشبه مارون مروانها
وتلثم عرفات لبنانها
ويهوى المشايخ كهانها
ويدفع للمجد شجعانها
تطاعن كالأسد أقرانها
ومرداً تعانق مرانها
يثور فدوك فتيانها
ومرد فلسطين غلمانها
وندفع إن جار عدوانها

* * *

أرى في الشباب شعوب
ورمز الحياة وعنوانها

فَخَلُّوا الْغَرِيبَ وَعَادَاتِهِ
فَمِنْ قَصِّ شَعْرٍ إِلَى رَقْصَةٍ
فَمَا الْمَدَنِيَّةُ أَنْ نَلْبِسَ
فَلَا تَزْدَرُوا مَنْ تَرَدَّى الْعَبَا
فَإِنَّ الْعَبَا لَعَرِينُ الرِّجَالِ
فَكَمْ عَزَّةٌ تَحْتَ ذَيْلِ الْعَبَا
وَلَا تَأْخُذُوا عَنْهُ أَدْرَانَهَا
أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ شَيْطَانَهَا
الثِّيَابَ نُشْمِرُ أَرْدَانَهَا
وإنْ أَغْلَظَ النَّسْجُ خِيطَانَهَا
إِذَا دَعَتْ الْحَرْبُ فَرَسَانَهَا
أَطَاحَتْ عُرُوشًا وَتَيَجَّانَهَا

* * *

وَأُمُّ اللِّغَاتِ أَقِيمُوا لَهَا
فَقَدْ كَلَّمَ اللَّهُ فِيهَا النَّبِيَّ
فَتِي الْعَرَبِ حَلَّ الْوَنَى وَاسْتَفَقَ
وَدُّدٌ عَنْ بِلَادِكَ مُسْتَقْتَبَلًا
فَهُمْ لَا يَبِيعُونَ حُرِّيَّةً
وَإِنِّي لَأَعْجَبُ مِنْ أُمَّةٍ
وَمِثْلِ النُّعَاجِ إِلَى مَجْزَرٍ
دَعَائِمَ تَحْفَظُ أَوْزَانَهَا
وَحَدَّثَ جَبْرِيلُ رِضْوَانَهَا
وَحَيَّ الْعِلَاءَ وَأَخَذَانَهَا
وَوَطَّدَ بِعِلْمِكَ بُنْيَانَهَا
لِمَنْ لَا يُؤَدُّونَ أَثْمَانَهَا
جَهُولٌ تُقَدِّسُ ذُؤَبَانَهَا
تُسَاقُ فَتَتَّبِعُ رَعِيَانَهَا

* * *

لِيَرْحَمَ إِلَهُ الْوَرَى وَلِسْنَا
فَمِنْ فَضْلِهِ صِرْتُمْ أُمَّةً
فَمَنْ جَاءَ يَبْغِي امْتِلَاكَ الْبِلَادِ
وَمَنْ حَلَّ ضَيْفًا فَأَهْلًا بِهِ
فَإِنْ هَدَمَ الدَّهْرُ آمَالَنَا
فَكُونُوا بَنِي أُمْنَا عَضْبَةً
فَرَايَةُ يَعْرَبٍ مَطْوِيَّةً
فَإِنْ كُنْتُمْ سَبَطَ أَجْدَادِكُمْ
نَصِيرَ الشُّعُوبِ وَمَعْوَانَهَا
تُعَزِّزُ بِالْحَقِّ سُلْطَانَهَا
يُلَاقِ الْعَصَاةَ وَأَعْوَانَهَا
هِيَ الْعَرَبُ تُكْرِمُ ضَيْفَانَهَا
فَلَيْسَ يُزْعِزُ أَرْكَانَهَا
تُجَدُّ لِتَحْمِي أَوْطَانَهَا
وَقَدْ بَغَتْ الدَّهْرُ أَلْوَانَهَا
أَلَا فَارْفَعُوا فِي غَدٍ شَانَهَا

(٣) أين الأعراب

كانوا في كلِّ عام يضايقونني بطلب جدول إحصاء بحسب طوائف التلامذة، فلا أدري ماذا أصنع، وسبب ذلك أننا لا نسأل طالباً عن دينه فكيف بنا وهم يطلبون إحصاءهم شيعاً وطوائف وهذا ما نجهله كل الجهل!

أَيْنَ الْأَعْرَابُ، أَيْنَ مَنْ قَدْ عَلَّمُوا؟
مَا لِي أَرَى وَطَنِي كَغَيِّبٍ عَابِسًا؟
سَفَرْتُ نُجُومَ سَمَائِهِ فَتَلَّالَتْ
دَارَ الزَّمَانِ عَلَيْهِ حَتَّى عَبَسَتْ
وَطَنِي وَأَفْتَهُ بَنُوهُ فَإِنْ يَكُنْ
هَيْهَاتَ أَنْ يَتَجَمَّعُوا، وَشَعَارُهُمْ
مَا كَانَتْ الْأَدْيَانُ لِلْفَرِيقِ مَا
أَوْحَى إِلَهُ بِهَا لِكَيِّ يَتَأَلَّفُوا
أَهْلًا بِيَوْمٍ لَيْسَ يَسْأَلُنَا بِهِ
وَيَصِيرُ مَذْهَبَنَا الْجَمِيعُ عُرُوبَةً
وَتُعَزِّرُ الْأَيَّامُ شَأْنَ أَعْرَابٍ

* * *

مِيرَاثُ أَهْلِ الْغَرْبِ كُنْزٌ تَجَدُّ
فَكَأَنَّنِي بِالشَّرْقِ قَصْرٌ هَائِلٌ
وَالْغَرْبُ يَبْنِي كُلَّ يَوْمٍ مَعْقِلًا
الْغَرْبُ طَارَ عَلَى جَنَاحِ بَخَارِهِ
يَا أَيُّهَا الْعَرَبِيُّ، تَنَبَّهْ وَاسْتَفِقْ
تَلْهُو بِكَانِ جُدُودِنَا فَكَأَنَّمَا
لَا تَسْأَلُوا الْأَيَّامَ عَنْ مَجْدٍ مَضَى
شَادَ الْجُدُودُ لَهُمْ قُصُورَ مَفَاخِرٍ
فَتَشَبَّهُوا بِهِمْ وَلَا تَبْكُوا عَلَى
إِنْ تَسْأَلُوا أَجْدَانَهُمْ هَتَفَتْ بِكُمْ

وَتُرَاثُنَا مَجْدٌ يَشِيخُ وَيَهْرَمُ
مُتَّصِدِعُ جُدْرَانُهُ تَتَهَدَّمُ
وَالْعَرَبُ فِي بَيْدِ الْخُمُولِ تُخَيِّمُ
وَالْعَرَبُ تَحْدُو فَوْقَهَا وَتَرْنَمُ
زَارَ الْبَحَارُ، فَكَيْفَ يَغْفُو النُّومُ
بِالْأَعْظَمِ النَّخِرَاتِ قَدْرَكَ يَعْظُمُ
وَتَجَدَّدُوا وَعَلَى الْقَدِيمِ تَرَحَّمُوا
شَمَ الذَّرَى وَعَلَى الْأَنَامِ تَقَدَّمُوا
أَطْلَالِهِمْ، إِنَّ التَّبَاكِييَ يُؤْلِمُ
إِنْ كَانَ لِلْأَجْدَاثِ نَطَقٌ أَوْ فَمٌ

أَبْنَاءَهُمْ، سِيرُوا كَمَا سَارُوا إِلَى
لَا تَرْهَبُوا الْعَقَبَاتِ وَهِيَ كَثُودَةٌ
وَدَعُوا التَّفَرُّقَ وَانْبَذُوا نَعْرَاتِكُمْ
مَنْ لَمْ تَعْلَمْهُ الْحَوَادِثُ، وَهِيَ
أَقْصَى الْفَلَاحِ وَغَامِرُوا كَيْ تَغْنَمُوا
إِنْ كَانَ فِيكُمْ مِنْ دِمَائِهِمْ دَمٌ
وَحْذُوا عَنِ التَّارِيخِ مَا لَمْ تَعْلَمُوا
أَسْتَازُ الشُّعُوبِ، فَذَاكَ لَا يَتَعَلَّمُ

١٩٢٦

(٤) ذكرى الشهداء

يوم كانت الحكومة تحيي ذكرى الشهداء في ٢ أيلول درجنا نحن على الاحتفال بذكرهم في ٦ أيار، وبقينا على ذلك حتى صار العيد واحداً، وقد قلت هذه القصيدة بهذه المناسبة مستهجناً النصب التذكاري الذي لم يستحسنه أحد غير الذين عملوه.

دولُ الخنا مهما تعاضمَ شَأْنُهَا
فَإِذَا رَأَيْتَ حُكُومَةً ظَلَامَةً
يَا أَيُّهَا الْعَرَبِيُّ، لَا تَقْنَطْ فَكَمْ
لَمْ يَبْقَ حَيْثُ تَحَكَّمَتْ إِلَّا الَّذِي
مَرَّتْ بِنَا مَرَّ السَّحَابِ وَلَمْ نَزَلْ
فَهَذَا الْبَقَاءُ لَنَا وَلَيْسَ لِغَيْرِنَا
لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي
وَأَسْعُوا إِلَى اسْتِقْلَالِكُمْ يَا أُمَّةُ
جُودُوا بِأَنْفُسِكُمْ إِذَا الدَّاعِي دَعَا
حُرِّيَّةَ الْأَوْطَانِ يَدْرِكُهَا الَّذِي
مُوتُوا فَمُوتُكُمْ الْحَيَاةُ لِأُمَّةٍ
مَاتَتْ مَوَاطِنُكُمْ لِأَنَّ رِجَالَهَا
أَمَّا الَّذِينَ اسْتَشْهَدُوا فَحَيَاتُهُمْ
مَاتُوا وَعِشْنَا بَعْدَهُمْ لَكِنَّا
فِي كُلِّ يَوْمٍ لِلشَّهَادَةِ دَعْوَةٌ
سَيِّدُكَ جَبَّارُ السَّمَاءِ بِنَاءَهَا
فَأَبْشِرْ، سَتَطْوِي النَّائِبَاتُ لَوَاءَهَا
دول غَزَتْكَ وَقَدْ شَهِدْتَ جَلَاءَهَا
تَرَكْتَ لِتَارِيخِ الْبِلَادِ وَرَاءَهَا
فِي أَرْضِنَا مُسْتَقْمَطِرِينَ سَمَاءَهَا
إِنَّ الْغَرِيبَ مُغَادِرٌ أَرْجَاءَهَا
جَلَّتْ وَقُولُوا مَا أَشَدَّ سَخَاءَهَا
شَهِدَ الزَّمَانُ جِهَادَهَا وَبَلَاءَهَا
فَالنَّفْسُ لِاسْتِقْلَالِنَا إِنْ شَاءَهَا
بِالنَّفْسِ ضَحَى وَاسْتَمَاتَ فِدَاءَهَا
مَقْهُورَةٌ قَدْ سَرَّهَا مَا سَاءَهَا
عَشِقُوا الْحَيَاةَ مَطْوِلِينَ رِشَاءَهَا
ذِكْرِي تَرَدَّدُ أَرْضُنَا أَصْدَاءَهَا
مُوتِي تَحَاوَلْ أَنْ تُطِيلَ بَقَاءَهَا
تَبْدُو وَلَكِنْ لَا تَرَى أَبْنَاءَهَا

شُهِدَاؤُنَا الْقُدَمَاءُ، هَلْ أَحَلَلْتُمْ
إِنَّ الشَّهَادَةَ بَعْدَكُمْ ظَفَرْتُمْ بِهَا
يَا أُمَّةَ الشُّهَدَاءِ أَنْتِ شَهِيدَةٌ
إِنْ يَعْجَبُوا فَلْيَعْجَبُوا لِشَهِيدَةٍ
إِنْ الْمَشَانِقُ لِلشُّعُوبِ مَنَابِرُ
يَا ضَيْعَةَ الشُّهَدَاءِ فِي وَطَنِ بِهِ
شُهِدَاءُنَا مِنْ بَعْدِكُمْ عَلَيْهَا
فِتْنَةٌ تَكْتُمُ خِيفَةً أَسْمَاءُهَا
نَبْلُ الْمَظَالِمِ مَزَقَتْ أَحْشَاءُهَا
بِدِمَائِهَا قَدْ كَرَّمَتْ شُهِدَاءُهَا
وَالْحَقُّ يَنْطِقُ دَائِمًا شُهِدَاءُهَا
فِتْنَةٌ تَعِيشُ لِتَسْتَغْلِلَ بِمَاءِهَا

* * *

يَا فِتْنَةَ الشَّرْقِ، الْبِلَادُ مَرِيضَةٌ
مِصْرُ تَبْنِي، وَفِي الْعِرَاقِ تَأْوُهُ
وَأَرَى فَلَسْطِينًا وَلُبْنَانًا وَسُو
أَوْطَانُكُمْ تَدْعُوكُمْ فَتَعَلَّمُوا
كَلَمِي، أَفِينَا مَنْ يُعَالِجُ دَاءَهَا
يُبْكِي الْحِجَازَ وَمَنْ أَتَى بَطْحَاءَهَا
رِيَّةً عَلَى يَأْسٍ يُمِيتُ رَجَاءَهَا
كَيْمَا تَلْبُؤُوا، قَادِرِينَ، نِدَاءَهَا

* * *

يَا أَيُّهَا الرَّمْزُ الَّذِي نَصَبُوكَ لِلشُّهَدَاءِ
قَدْ قُمْتَ شَبَهَ مَنَاحَةِ أَبَدِيَّةٍ
جِئْتَ مُضَاعِفًا بَلَوَاءَهَا
فِي أُمَّةٍ عَنْهَا تَذِيبُ نِسَاءَهَا

١٩٢٧

(٥) دعوا ذكر مي

وهذه مثل أخواتها قبلت في مرضنا المعلوم، شفى الله الأمة من هذا الداء.

دَعُوا ذِكْرَ مِيٍّ وَعَصَرَ الدَمَنِ
وَحَلُّوا أَذْكَارَ اللَّيَالِي الْخَوَالِي
وَلِلْمَجْدِ سِيرُوا صُفُوفًا صُفُوفًا
فَإِنْ تُرْجِعُوا عِرْكَكُمْ فَاخْرُوا
وَالْأَمَّا النَّفْعُ مِنْ صَيِّحَةٍ
أَيَا مَعْشَرَ الْعُرْبِ طَالَ الْوَسَنُ
فَتَذَكَّارُهَا مَوْقِدٌ لِلشَّجَنِ
فَمَاذَا يُفِيدُ الْبُكَاءَ وَالْحَزْنَ
بِمَجْدٍ مَضَى «ملء عين الزمن»
لِتَحْيَا الْبِلَادُ لِيَحْيَا الْوَطَنُ!

* * *

أَلِفْنَا التَّفَجُّعَ فَوْقَ الطُّلُولِ
وَأَشْغَفْنَا ذِكْرُ مَجْدِ الْجُدُودِ
وَبِتْنَا حَيَارَى وَلِلْكَهْرِبَاءِ
وَيُطْرِبُنَا ذِكْرُ مَجْدِ قَدِيمِ
وَأِنْ يَفْخَرِ الْغَرْبُ قُلْنَا لَهُ
بِعَصْرِ قُصُورِ الْوَرَى الشَّاهِقَةِ
وَأَيَّامِ عَزِّهِمِ السَّابِقَةِ
شُمُوسُ بَدَتْ حَوْلَنَا شَائِقَةِ
بَقَايَاهُ مَا بَرَحَتْ نَاطِقَةِ
مَقَرُّ النُّبُوءَةِ هَذَا الْوُطَنِ

* * *

تَنَانَا التَّعَصُّبُ عَنْ نَهْضَةٍ
وَمَا فِي الْبِلَادِ سِوَى صَيِّحَةٍ
قَوَافٍ تَرِنُ وَنَثْرُ يَطْنُ
وَصُحُفٌ تَصِيحُ وَلَا تَسْتَرِيحُ
وَأِنْ عَدَدَ الْغَرْبُ أَمْجَادَهُ
نَسُودُ بِهَا وَأَلِفْنَا الْجَدَلَ
كَنَحْلٍ يَدْنُ وَمَا فِي عَسَلِ
وَشَعْبُ يَتْنُ قَلِيلَ الْأَمَلِ
وَعِلْمُ صَحِيحُ وَمَا مِنْ عَمَلِ
نُعَدُّ أَثَارَ هَذَا الْوُطَنِ

* * *

لَقَدْ أَدْرَكَ الْغَرْبُ سِرَّ النُّجُومِ
فَبُنَسَ الْحَيَاةُ حَيَاةَ الْجُهُولِ
أَأَنْتُمْ أَحْقَادُ فِينِيْقِيَا
فَأَيْنَ التَّجَارَةُ، أَيْنَ الصَّنَاعَةُ
فَإِنْ لَمْ تَحُوكُوا عَلَى نَوْلِكُمْ
وَنَحْنُ جَهْلُنَا حَدِيثَ الثَّرَى
فَذَاكَ الْخَلِيقُ بَأَنْ يُزْدَرَى
رَجَالُ التَّجَارَةِ أَذْكَى الْوَرَى
أَيْنَ الزَّرَاعَةُ، مَاذَا الْعُرَى!
تَبَرَّأْ مِنْكُمْ هَذَا الْوُطَنِ

* * *

لَقَدْ فَرَقْتَكُمْ أَذْيَانُكُمْ
أَلَيْسَ إِلَهُكُمْ وَاحِدًا
وَلَا تَسْمَعُوا قَوْلَ شُذَّازِكُمْ
فَمَا أَشْنَعَ الْخَلْفَ فِي مَعْشَرِ
فَكُونُوا أَسُودَ الْوَعَى عُصْبَةً
فَصِرْتُمْ شَعْبًا بَدُونِ وَطَنِ
فَكُونُوا بَنِيهِ وَخَلُّوا الضَّغْنَ
تَرْقَى الْبِلَادُ وَلَا تُمْتَهَنُ
وَشَعْبُ يَقُودُونَهُ بِالرَّسَنِ
تَذُودُ وَتَحْمِي ذِمَارَ الْوُطَنِ

* * *

فَأَيْنَ الْمَفَاخِرُ مِنْ أُمَّةٍ
وَتَرَوْتَهَا أَصْبَحَتْ لُقْمَةً
وَمَا جَمَعَتْ قَوْمَهَا جَامِعَهُ
جَمِيعُ الشُّعُوبِ بِهَا طَامِعَهُ

وَأِنْ أَقْفَلَ الْغَرْبُ أَبْوَابَهُ تَلَاقي مَنِيتَهَا خَاضِعَهُ
أَلَمْ تَذْكُرْوهَا بِأَطْمَارِهَا تُفْتَش عَنْ قُوَّتِهَا ضَارِعَهُ
فَإِنْ حَرَّرْتَكُمْ أَيَّامُكُمْ تَغْنُوا بِأَمْجَادِ هَذَا الْوَطَنِ

* * *

فَمَا مِنْ رُقِيٍّ لِأَوْطَانِكُمْ بَغِيرِ اقْتِبَاسِ الْعُلُومِ الصَّحِيحِ
فَلَا الشَّرُّ يُعْلِي مَقَامَ الشُّعُوبِ وَلَا تَرْتَقِي بِالْكَلامِ الْفَصِيحِ
خُذُوا مِنْ عُلُومِ الزَّمَانِ أُمُورًا تُضَمِّدُ قَلْبَ الْبِلَادِ الْجَرِيحِ
فَفِي الْقَلْبِ جَرْحٌ أَلِيمٌ قَدِيمٌ وَفِي كُلِّ غُضُوٍّ مِثْلُ الْقُرُوحِ
فَإِنْ بَرِئَ الْجِسْمُ مِنْ دَائِهِ يُدَافِعُ عَنْ حَوْضِ هَذَا الْوَطَنِ

١٩٢٦

(٦) بلوى الشرق

هذا شعرٌ «نحويٌّ» فاقرأ هذه الملهاة وقل بعدها ما تشاء، ولعلها تحظى فمن يدري، أما قيل: لولا اختلاف النظر ما نفقت السلع؟

مَاذَا أَقُولُ فَلَا الصَّحِيحُ يُقَالُ إِنِّي أَرَى «الْإِضْمَارَ» أَفْصَحَ إِنْ «قَضْتُ»
«فَالنَّحْوُ» بَيْنَ مَقَاعِدِ النَّدْرِيسِ غَيْرُ «وَالصَّرْفُ» لَمْ يَصْرِفْ عَنِ الشَّعْبِ الْعَنَا
فَالْدَّهْرُ قَدْ أَفْنَى كِنَانَةَ صَرْفِهِ فَاتَّقُوا بِأَنَا لَفْظَةَ مَهْجُورَةٍ
«وَالنَّحْتُ مُشْتَغِلٌ» بِنَا وَرَجَالِنَا لَا يَنْفَعُ «التَّحْذِيرُ» وَالْإِغْرَاءُ مَنْ
صِرْنَا عَنِ «التَّمْيِيزِ» أَبْعَدَ أُمَّةٍ «وَبِالْإِسْتِعَارَةِ» أَشْغَلْتُ أَذْهَانَنَا
«وَالْفَضْلُ» دَيْدُنُنَا، وَلَيْسَ يَهْمُنَا

وَالْكَذِبُ مَا مَلَحْتُ بِهِ الْأَقْوَالُ فِيهِ عَلَى أَهْلِ الْبَيَانِ «الْحَالُ»
النَّحْوِ فِي الدُّنْيَا، وَفِيهَا الْمَالُ إِنْ جَاءَهُ «الْإِذْغَامُ» وَالْإِعْلَالُ
فَأَصَابَنَا «التَّصْغِيرُ» وَالْإِذْلَالُ قَدْ عَاثَ فِيهَا «الْقَلْبُ» وَالْإِذْهَالُ
«بِتَنَازُعٍ» دَامَ لَهُمْ أَشْغَالُ ضَلُّوا وَمَا سَمِعَ «النَّدَا» الْجُهَّالُ
«وَبِالْإِسْتِعَارَةِ» «تُنْدَبُ» الْأَطْلَالُ وَبِغَايَةِ «التَّشْبِيهِ» لَاحَ الْأُلُ
«وَصُلُّ»، وَلَا «قَصْرُ» وَلَا إِجْمَالُ

أَمَّا «البدیع» فشطَّ عن أعمالنا
 أَمَّا «فعال قلوبنا» فأصابها
 ما «تمَّ» من أفعالنا فعل سما
 ماذا أقول «ولا محلَّ» لأمتي
 إِنَّا «نُصِبْنَا» «بالعوامل» كلَّها
 وَعَلَى «السكون» «بنَى» الزمانُ مصيرنا
 نَتَعَلَّمُ «الضرب» المشين «وقسمه»
 «وَالْجَبْرُ» لِلْقَلْبِ الكسير عَلَى المنا
 نَقْضِي الحِیَاةَ هُنَا بِمَنْثِلِ جَهَنَّمَ
 فَمِنْ الْجَهَالَةِ أَنْ نُكْفِّرَ بَعْضَنَا
 إِنَّا لَنَخْتَكِرُ النَّعِيمَ لِكَي نُرَى
 إِنْ كَانَتْ السَّمَاوَاتُ مِثْلَ حَدِيثِهِمْ
 أَقْسَمُ الْمِيرَاثِ قَبْلَ تَنْبُتِ
 ماذا أقول لَهُمْ غَدًا إِنْ طَالَبُوا
 مُوسَى وَأَحْمَدَ وَالْمَسِيحَ جَمِيعُهُمْ
 وَالرَّبُّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
 نَلْقَى الْمُهَيِّمَنَ، وَالصَّلِيبُ شِعَارُنَا
 فَالدِّينَ، ذَاكَ الْيَوْمَ، لَيْسَ يُفِيدُنَا
 دَعْنِي سَعِيدًا، وَالْجَهَنَّمَ حَصَّتِي
 خُذْ عَنِّي اسْمِي إِنْ يَكُنْ لَكَ مُوجِدًا
 هَذِي الْحَيَاةَ عَدِيدَةً أَنْحَاوْهَا
 فَمَعَ الزَّمَانِ تَجَدَّدُوا لَكِنْ عَلَى
 لَيْسَ التَّجَدُّدُ بِالثِّيَابِ وَإِنَّمَا
 سَيَانِ مَنْ لَيْسَ «الفرنجي» والذي
 سَيَانِ عِنْدِي مِنْ تَزْيِينِ رَأْسِهِ
 فَتَحَلَّ بِالْخَلْقِ الْكَرِيمِ مُنَاضِلًا

ولنا بتقليد الورى استرسالُ
 «التعليقُ والإلغاء» فالإهمالُ
 وغدا «لِكَانَ» الحول والإعمالُ
 الصرعى «من الإعراب» إلا «الحالُ»
 حتى «جُررنا» وانتهى الإشكالُ
 «والرفعُ» لَيْسَ لَنَا بِهِ آمَالُ
 «والجمعُ» لَيْسَ لَنَا بِهِ «أَعْمَالُ»
 بِرِ حَيْثُ يَكْثُرُ قِيلُنَا وَالْقَالُ
 وَلَنَا بِجَنَاتِ السَّمَاءِ آمَالُ
 فِي الدِّينِ، وَالرَّبُّ الْقَنَا الْعَسَالُ
 وَلَنَا بِهِ دُونَ الْوَرَى «استِقْلَالُ»
 عَنْهَا، فَفِيهَا لِلْجَمِيعِ مَجَالُ
 وَيُقَالُ فِي الْمَرِيخِ لِي أُمْتَالُ
 بِحَقْوَقِهِمْ! مَا فِي الْوُجُودِ مُحَالُ
 فِي عَرْفِ أَرْبَابِ النُّهَى أُمْتَالُ
 وَالْقُرْآنِ مَا اخْتَلَفَتْ لَهُ أَشْكَالُ
 كَلِقَائِهِ وَلَنَا الشُّعَارُ هَلَالُ
 إِنْ لَمْ تَزَيِّنْ جِيدَنَا الْأَعْمَالُ
 وَخُذِ النَّعِيمَ وَدُونَهُ الْأَهْوَالُ
 وَاخْتَرِ لِي اسْمًا فِيهِ «يَمْشِي الْحَالُ»
 كُلُّ أَمْرِي فِيهَا لَهُ «مَوَالُ»
 حَذَرُ، فَمَا كُلُّ الدَّقِيقِ يُكَالُ
 بَعْلُومَهَا تَتَجَدَّدُ الْأَجْيَالُ
 مَلْبُوسُهُ الْغَنَبَاؤُ وَالشُّرُوَالُ
 بَرْنِيْطَةُ عَصْرِيَّةٌ وَعَقَالُ
 فَهَوُ التَّجَدُّدُ، وَاتْرُكْ مَا قَالُوا

(٧) بابل الأديان

تلذت نار الطائفية في لبنان، واختلفت مذاهب الناس، وذرت قرون تيوس التعصب فحفنا أن يعيد التاريخ سنة ١٩٠٤ نفسه فقلت، وأنا منفعل أشد انفعال، هذه القصيدة.

يَا بَابِلَ الْأَدْيَانِ يَا وَطَنِي يَا مَسْرَحَ الْأَحْقَادِ وَالْفِتَنِ

* * *

وَطَنِي وَمَا فِيهِ سَوَى أُمَمٍ
وَطَنُ تَغِيمٍ سَمَاوُهُ عَبَثًا
وَجِرَاحُهُ التَّامَّتْ عَلَى دَغَلٍ
فَرَقُّ مُبْعَثَرَةٍ هُنَا وَهُنَا
فَتَجَمَّعَ الْجُمُعَاتُ مَضْطَرِبٍ
أَمْسَى التَّفَرُّقُ سُنَّةً لَهُمْ
إِنْ نَنَسَ لَا نَنَسَ الْمَشَانِقُ
هَلْ فَرَقَ «السَّفَاحُ» يَوْمَ طَغَى
إِلَّا عَنِ الشَّحْنَاءِ فِي وَسَنِ
وَأَدِيمُهُ لِبَنِيهِ لَمْ يَلِنْ
مُعِي، فَهَدَنْتُهُ عَلَى دَخَنِ
هَدَفَ الْبِلَاءِ دَرِيَّةَ الْمِحَنِ
وَتَأَخَّذُ الْآحَادِ فِي وَهْنٍ
جَزِيًّا مَعَ الْأَدْيَانِ وَالسُّنَنِ
وَالْأَبْطَالِ تَلْقَاهَا بِلَا هُدَنِ
مَا بَيْنَ مَعْمُودٍ وَمُخْتَنٍ؟

* * *

يَا بَابِلَ الْأَدْيَانِ يَا وَطَنِي
كُلُّ يَوْلَى شَطَرَ مَسْجِدِهِ
وَالطَّائِفِيَّةُ فِيهِ طَائِفَةٌ
حَذَرًا بَنِي أُمِّي فَقَادَتْكُمْ
خَلُّوا النِّعَاقَ عَلَى خَرَائِبِكُمْ
الطَّائِفِيَّةُ فِتْنَةٌ، فَذَرُّوا
يَا وَيَحَهَا كَمْ فَرَقَتْ أُمَمًا
أَلَا هَذَا مُسْلِمٌ وَأَنَا
هَلْ عَلَّمَ الْقُرْآنَ مَوْجِدَةً
يَا مَسْرَحَ الْأَحْقَادِ وَالْفِتَنِ
وَجْهًا، وَيَذْبُرُ مَسْجِدَ الْوُطَنِ
كَالْبُومِ نَعَابًا عَلَى الدَّمَنِ
جَدُّوا بِكُمْ لِلْمَرْكَبِ الْخَشَنِ
وَاسْتَحْدِثُوا مَا لَاقَ بِالزَّمَنِ
أَعْوَانَهَا فِي السَّرِّ وَالْعَلَنِ
فَاقْتَادَهَا طَاغَ بِلَا رَسَنِ
مُتَنَصِّرُ صِرْنًا ذَوِي إِحْنٍ
أَوْ بَشَرَ الْإِنْجِيلُ بِالضَّغَنِ

* * *

يَا بَابِلَ الْأَدْيَانِ يَا وَطَنِي يَا مَسْرَحَ الْأَحْقَادِ وَالْفِتَنِ

مَا الدِّينُ إِلَّا عَارِضٌ وَأَبِي
وَأَنَا بِهِ رَاضٍ، وَيُؤْلِمُنِي
يَا صَاحِبِي، هَبْ أَنَّنَا فَرَقَ
فَعَلَامَ نُنْكَرُ بَعْضَنَا حَقَّقًا؟
فَأَلَى التَّسَامُحِ فِي الْحَيَاةِ نَسُدُّ
أَبْنَاءَ أَحْمَدَ وَالْمَسِيحِ أَلَا
وَتَعَاوَنُوا طَرًّا عَلَى عَمَلٍ
مَنْ يَشْتَرِي الْبَغْضَاءَ غَالِيَةً
يَا بَابِلَ الْأَذْيَانِ يَا وَطَنِي
يَسُوعُ لَا يَحْتَاجُ نَصْرَتَنَا
جَاءَ لِبَثِّ النُّورِ مَرْحَمَةً
أَعْلَى الرِّئَاسَةِ ثَارَ ثَائِرُنَا
إِنَّ الْعَوَاصِفَ وَالْبِحَارَ إِذَا
يَا خَيْبَةَ الْأَمَالِ فِي وَطَنٍ
وَسِيَاسَةَ التَّوْظِيفِ تَشْغُلُهُ
شُعْبًا تَرَى لِكِنَّهُ شُعْبٌ
يَتَلَذَّذُونَ بِكُلِّ تَجْزِئَةٍ

إِذْ شَاءَ هَذَا الثَّوْبُ اللَّبَسَنِي
مَنْ إِنْ رَأْنِي فِيهِ أَنْكَرَنِي
فِي عَسْكَرِ الثَّوْبِ مَيِّزَنِي
أَجْهَلْتُ أَنَّكَ إِنْ أَهْنُ تَهْنُ
إِنْ عَزَّ مَغْرورًا أَخُ فَهْنُ
لَفُوا حَدِيثَ الْأَمْسِ فِي كَفْنٍ
مُجِدِّ يُعَزِّزُ كُلَّ مُمْتَهَنٍ
وَالْحُبُّ مَعْرُوضٌ بَلَا تَمْنُ!
يَا مَسْرَحَ الْأَحْقَادِ وَالْفِتَنِ
وَمُحَمَّدُ عَنِّي وَعَنْكَ غَنِي
فَالْأَمَ نَأْلُفُ وَحَشَّةَ الدَّجَنِ
هَذِي الرِّئَاسَةُ أَمْرُهَا لِمَنْ؟
ثَارًا فَلَا يَشْقَى سِوَى السُّفْنِ
بَيْنَ الطَّوَائِفِ وَالرُّعَاةِ فَنِي
عَنْ حُبِّهِ الْيَوْمِي وَالْمِهَنِ
هَذَاكَ قَيْسِي وَذَا يَمَنِي
اللَّهِ فِي ذَا الْمَوْطِنِ الزَّمَنِ

* * *

يَا بَابِلَ الْأَذْيَانِ يَا وَطَنِي
إِنْ كَانَتْ الْأَذْيَانُ عَلَّتْنَا
يَا مَسْرَحَ الْأَحْقَادِ وَالْفِتَنِ
يَا لَيْتَنَّا مِنْ عَابِدِي الْوُثَنِ

(٨) على ناعورة حماة

لا أدري التاريخ بالضبط ولا جلد لي فارجع إلى المراجع، أما الحكاية التي أقصها عليك فهي هذه: كنت في حماة، فطاب لي المقام فيها وإن كانت كالتنور صيفاً، كان الإخوان يتأهبون للثورة، ولكن وجودي عندهم حال دون ذلك خوفاً على حياتي، وشاء والد الدكتور محمد السراج أن يقيم لي حفلة، فكانت على كتف العاصي قبالة قبر أبي الفداء،

وكان من المدعويين الدكاترة أبطال النهضة ثلاثتهم: صالح قنباز، توفيق شيشكلي، النائب فيما بعد، وخالد الخطيب.

وغنى المغني أبياتاً لأبي فراس وقَّعها على العود، ولما انتهى إلى قوله:

وَنَحْنُ أَنْاسُ لَا تَوْسُطَ عِنْدَنَا لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ

قرص صالح قنباز خالد الخطيب في فحذه، ثم قال لي أحدهم: غداً مسافر الأستاذ من غير شر؟ فرددت كلمة «من غير شر» بلا وعي، ولما صرت في بعلبك اشتعلت حماة وحرقت السراي، ثم قتل الدكتور صالح رحمه الله.

لم أعلم شيئاً من هذا إلا بعد سنوات، عرفته في الحفلة التكريمية التي أقامها لي الدكتور خالد الخطيب في عمان عام ١٩٣١، حكى الحكاية — رحمه الله — وقال: أخرنا الثورة حتى تحقق لنا وصوله إلى بعلبك.

أما أنا فكنت أعددت هذه القصيدة لتلك الحفلة وأنشدتها فيها غير دار أن النار بالعودين تذكى.

إِنَّمَا نَحْنُ فِي الْهَوَى سَيَّانٍ	لَا تَتَّخِذِي يَا بِنْتَ ذَاكَ الزَّمَانِ
سَهَامٌ شَتَّى مِنَ الْحَدَثَانِ	إِنْ رَمَاكَ الزَّمَانُ سَهْمًا فَفِي الصَّدْرِ
فَهُوَ مِلْءُ الْقُلُوبِ وَالْأَذَانِ	فَدَعِي النُّوْحَ سَاعَةً وَأَصِيخِي
لَمْ تَقِفْ فِي الْحَيَاةِ غَيْرَ ثَوَانٍ	يَا عَجُوزًا مَشَتْ بِعِزِّ الصَّبَايَا
فَكَانَتْ كَالدَّهْرِ فِي الدُّورَانِ	مَثَلْتُ دَوْرَهَا عَلَى مَسْرَحِ الدَّهْرِ
مِثْلَمَا يَسْلُبُ الزَّمَانُ الْأَمَانِي	تَسْلُبُ النَّهْرَ مَاءَهُ بِتَأَنٍّ
فَنَرَاهُ زَهْرًا عُقُودَ جَمَانٍ	تَنْثُرُ الدَّمْعَ فِي الرِّيَاضِ لُجَيْنًا
بَاكِياتٍ بِمَدْمَعِ هَتَّانٍ	إِنَّ بِنْتَ الْعَاصِي لَهَا أَلْفُ عَيْنٍ
أَقْلُوبُ الرِّجَالِ مِنْ صَوَّانٍ؟	وَلَنَا أَعْيُنٌ بِدُونِ دُمُوعٍ
وَبُكَاهَا بِهِ حَيَاةَ الْجَنَانِ	إِنْ بَكَيْنَا فَمَا يُفِيدُ بُكَانًا

* * *

وَأُنْدِبِينَا كَقَوْمِكَ الرُّومَانِ	إِيه، بِنْتَ الرُّومَانِ، نُوحِي عَلَيْنَا
وَرَأَيْتِ الْغَزَاةَ فِي كُلِّ آنٍ	خَلَدَتْكَ الدُّنْيَا الَّتِي حَطَّمْتَنَا

خَبَّرِينَا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِرًّا
يَا ابْنَةَ الرَّاقِدِينَ ضَجِّي عَسَى أَنْ
هِيَه، نَادِي أَبَا الْفِدَاءِ يُسَجِّلُ
أَيْقَظِيهِ وَأَيْقَظِي كُلَّ مَلِكٍ
أَيْقَظِيهِمْ لِكَيْ يَرَوْا مِنْ بَنِي الْعُرْبِ
مَا هُمْ الْمَائِتُونَ بَلْ نَحْنُ مَوْتَى
أَيْهَذَا الْعَاصِي تَوَقَّفْ وَحَدِّثْ
قَدْ مَشَى صَامِتًا وَفِي الْفَمِ مَاءٌ
دَمْعَةُ الْخَاطِبِينَ تَمَحُّو ذُنُوبًا
وَأَرَى حَوْلَهُ الْجَنَائِنَ سَكْرَى
قَائِمَاتٍ أَشْجَارَهَا كَالْعِذَارَى
وَعَلَيْهَا الْأَطْيَارُ تَلْغُو وَتَشْدُو
وَرَأَيْتِ الْبِلَادَ تَرْسِفُ فِي قَيْدٍ
فَعَلْتُ صَيِّحَتِي وَقُلْتُ تَعَقَّلْ
اضْمُتِّي يَا طَيُورَهُ، لَا تَجْنِي
فَأَجَابَتْ وَفِي الْجَوَابِ عِظَاتٌ:

بِشُعُوبٍ عَانَتْ ضُرُوبَ الْهَوَانِ
يَسْتَفِيْقُ النَّيَامُ فِي الْأَكْفَانِ
صَفْحَةً فِي تَارِيخِهِ ذَاتَ شَانٍ
قَامَ بِالْأَمْسِ مِنْ بَنِي عَدْنَانٍ
مُلُوكًا لَكِنْ بِلَا سُلْطَانٍ
بِخُشُوعٍ صَلَّى عَلَيْنَا الْجَانِي
مَا أَرْتَكُ الْأَجْيَالُ مِنْ أَرْمَانٍ
يَا لَهُ «عَاصِيًا» مَشَى بِأَمَانٍ
وَدُمُوعُ الْعَاصِي بِلَا غُفْرَانٍ
بِخُمُورِ الْحُبُورِ وَالْأَفْتَتَانِ
تَنْهَادِي أَغْصَانُهَا كَالْقِيَانِ
لَاعِبَاتٍ فِي ذَلِكَ الْمَهْرَجَانِ
مِنْ الْبُؤْسِ عَالِكَاتِ الْعَنَانِ
أَيُّهَا الرُّؤُوسُ، أَنْتِ فِي أَوْطَانِي
نَحْنُ فِي مَاتَمٍ فَكَيْفَ الْأَغَانِي
إِنْ طَمَا الْخَطْبُ فَهُوَ عَرْسُ ثَانٍ

١٩٢٧

(٩) عَلِّمُوهَا

لا أذكر لها سبباً خصباً، وهي مقولة قبل سنة ١٩٢٣.

عَلِّمُوهَا فِيهَا يَرْقَى الْوَطَنُ
هَذَّبُوا الْمَرْأَةَ مِرَاةَ الزَّمَنِ
وَاجْعَلُوا الْعِلْمَ لَهَا خَيْرَ حَلِي
وَهُمْ مَجْدُ الْوَطَنِ
فَهِيَ بُسْتَانُ زُهُورٍ وَثِمَارُ
فَهِيَ لِلْأَبْنَاءِ فِي الدُّنْيَا مَنَارُ
فَهِيَ أُمُّ الْعُلَمَاءِ الْعُظَمَاءِ
بِهِمَا نَقَرًا أَسْمَى الْعَاطِفَاتِ

صُنِعَا مِنْ مَاءٍ لُطْفٍ وَحَنَانٍ بِهِمَا تُدْرِكُ أَسْرَارُ الْحَيَاةِ
سَلَّحُوهَا بِدُرُوسِ سَامِيهِ فَهِيَ أُمٌّ لِلْجُنُودِ الْبُسْلَاءِ
وَبِهِمْ يُخَمَى الْوَطَنُ

وجد الرحمن نقصًا في الوجود فبراها آية الخلق البديع
ضحك الفردوس عن ثغر السعود إذ رأى في خلقها أسمى صنيع
لا تلوموها، فهذي أمكم وهي من ناغت جميع الأنبياء
ونفت عنا الحزن

حبّذا الأم فما هذي الدنى غير أم زانها أسمى حنان
ثغرها ينفي متى افتتر لنا كل غم قد غشا منا الكيان
علموها تغنموا أرقى فلاح صدرها مهد البنين النجباء
إن جفا الجفن الوسن

كم تغنّى شعراء الأعصر وأعادوا للورى فيها النشيد
كم مشى من قائد وقصور بلواها ولها دان العميد
سائلوا التاريخ كم دانت عروش وترامت تحت أقدام النساء
في ميادين الزمن

أيها الأم هلمي للعلاء وهبي الدنيا البنين الناهضين
وابسمي فالغيب الماضي انجلي فابتسام الأم سلوان البنين
إنما الأمة نسج الأمّهات فاسمعوا صوتًا ينادي في العلاء
علموا بنت الوطن

شُبُهَاتٌ وَظُلُمَاتٌ

(١) شكوك

في أحوال خاصة يعترى المرء ما لا أحسن تسميته، فيتجه اتجاهًا لا يقصده، فيهرف بما لا يعرف.

في صحارى المجاهل الأبدية
دون ما فكرة ودون روية
سوف يرسو بمرفأ الأبدية
من حطام فيها ومن مدنية
غير بعض الفضائل العلمية
إنما الموت والنواح بليته
ويذهب كالتنفس في الفضاء
إلَهَكَ بِاسْمًا يَوْمَ الْقَضَاءِ
فَاضْحَكَ بِهَا أَوْ مَثَّلَ
فَاسِدِلَ سِتَارِكَ وَانْزَلَ
وَاسْتَبَاحُوا أَسْرَارَهَا الْمَكْنُونَةَ
وَبَهَا الْعَيْنُ أَصْبَحَتْ مَفْتُونَةَ
لِلَّذِي هُوَ فِي الْمَفَاعِيلِ دُونَهُ
فِي خَطَاهَا تَسِيرُ وَهِيَ أَمِينَةُ
لِمِلْدَاتِهِ فَأَبْدَى جُنُونَهُ

قاطراتُ السنين تختالُ فينا
تَتَهَادَى حِينًا وَتَسْرَعُ حِينًا
لَيْسَ نَحْكِي فِي الْكَوْنِ إِلَّا سَفِينَا
كُلُّ هَذِي الدُّنْيَا وَمَا تَعَشَّقُونَا
لَيْسَ فِيهَا يَا قَوْمُ مَا يُجَدِّدُنَا
فَدَعُونَا مِنَ النُّوَاحِ دَعُونَا
فَهَذَا الْكَوْنُ يَفْنَى كَالْهَبَاءِ
وَإِنَّكَ فَائِزٌ إِنْ كُنْتَ تَلْقَى
إِنَّ الْحَيَاةَ رَوَايَةَ
وَإِذَا عَرَّتْكَ نَهَائِيَّةُ
فَتَحِ النَّاسُ مَغْلَقَاتِ الطَّبِيعَةِ
فَرَأَيْنَا فِيهَا أُمُورًا بَدِيعَةَ
سَلَمِ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ صَنِيعِهِ
كُلُّ هَذِي الْأَجْرَامِ وَهِيَ سَرِيعَةُ
حَسَبِ الْمَرَّةِ أَنَّهَا مَصْنُوعَةُ

مَا يَرَى مِنْ فَوَاجِعَ لَنْ يَرَوْعَهُ
فليس الموتُ إِلَّا كالرقاد
ومن قد عاش بالإيمان حيًّا
أما الذي إيمانه
فَلتَبْكِهِ إِخْوَانُهُ
إنما الموت سَلَمُ الارتقاء
لو خلقنا من بدئنا للبقاء
إِنَّ موتي عَذْبٌ وسَهْلٌ فنائي
إنما الصعبُ فرقةُ الأحياء
لا تنوحوا على التي في السماء
فهي بنت الإيمان أخت الرجاء
أرى في بوق جبرائيل رمزًا
فطوبى للذي يحيا تقيًّا
فاصرف حياتك عاملاً
كن محسنًا ومجاملاً
رَبُّ أُمَّ مَاتَتْ وَخَلَّتْ بَنِيهَا
ذاك حكم القضاء أُنْزِلَ فيها
كم شقيٌّ في الأرض يخال تيهًا
إن جفتك الدنيا فلا تبكيها
نازلِ الحادثاتِ لا تتَّقِهَا
فهي لم تخشَ سيِّدًا أو وجيهاً
ورأيي في المنايا كابن سلمى
ولكنني أسيرُ ولا أُبالي
قد جئتُ غيرَ مخيَّر
أفنى ويبقى جوهرى

وَهُوَ رَهْنٌ للسَّاعَةِ المرهونُ
وفيه راحة لبني الجهاد
يموت على رجاء بالمعاد
قد مات، فهو بلا رجاء
وعليه قد حَقَّ البكاء
وإذا زال فالحياة جمودُ
لضجرتنا وهل يطيب الهمودُ؟
وبهذي التطوراتِ الخلود
فتجلد يا أيُّهَا المولود
عيشها طاب، فالممات رقود
ولها العيش بالمحبة عيدُ
لتجديد الحياة لمن تعزى
محبةً للعدو فليس يخزى
في كرم ربك باجتهاد
وانهج، أخي سبيلَ الرشاد
كفراخ القطاة زغب الحواصل
وعن الدهر والقضا لا تسائل
وتقيُّ يلقي المصاعب ناحل
فغداً أنت لا محالة راحل
باضطرابٍ فالخوفُ بابُ الغوائل
يستوي عندها عليمٌ وجاهل
ولست أحيط بالجهولِ علما
أحرَبًا كان لي أو كان سلما
ولسوفَ أَرْجِعُ مرغما
حيَّ العناصر مثلما

(٢) الحرارة والحياة

أما النسيبُ فقد تقادَمَ عهدُهُ وطوى المشيب تشبُّي في لحدهِ
من كان يقْدَحُ كُلَّ يومٍ زندهُ نسي الهوى فخبثَ شرارةُ وجدِه
والسيفُ ينبو حينَ يصدأُ حدُّهُ مَا فَاتَ نَعَجُزُ كُلُّنَا عن رَدِّهِ

هيهات أيام الصبا تتجدد

أَمَّا الشبابُ فقلَّ منه ما بَقِيَ وأتى المشيبُ يسيرُ بي نحوَ الشَقَا
ودَّعْتُ آمالي وقلْتُ سنلتقي وسألت ذاتي هل لنا من ملتقى؟
فتنهَدْتُ نفسي وقالتُ لي اتقي إِنَّ الأمانِي قد مَضَتْ فلك البَقَا

والعيش ليل مثل حظك أسود

من أين جئت وأين أين المذهبُ كم ضلَّ في تحديد هذا المطلبِ
سرُّ عن الرجل الحصيف محجَّب وطريقه الشعواء ذات تشعُّب
فدعي أيا نفسي، حديثًا يتعب وإذا دنا موتي فلا تتعجَّبي

إِنَّ البناء يُهدُّ ثم يشيِّد

هَذي الكواكب كم بها من هَامِد بلظى الحرارة قد توقَّدَ واتَّقَد
دَارَتْ به الأجيالُ دورةَ جامِد سلبت حرارته فبرده الجَلَدُ
ولذلك إن طُفِئَتْ نِيارُ مواقِدي سيقول عَوَّادي دعوهُ نقد بَرَدُ

إِنَّ الحَيَاةَ حرارةٌ تتوقَّدُ

لم تظهرِ الأحياءُ إلَّا عندما وجدتُ لها ثَغَرَ الحرارةِ يبسم
ولسوفَ تَفْنَى أرضنا هَذي وما فيها، إذا ما فارقَ الشمسَ الحَمُومُ
والكونُ يخلدُ بالحرارةِ مثَلَمَا خلدتُ على رغمِ الفناءِ جهنَّمُ

أو لا فليس سوى الفناء يُخلدُ

(٣) إلى روح صديق

قلتها في صديق لا يعينك أن تعرف من هو، أما أنا فأثر بي موته جداً حتى نطقت بما نطقت.

نَامِي فَمَا فِي النَّوْمِ مِنْ عَجَبٍ	إِنَّ الرُّقَادَ مَغَبَّةَ التَّعَبِ
نَامِي عَنِ الدُّنْيَا وَبَهَجَتِهَا	فَالْمَوْتُ أَحْلَامٌ مِنَ الذَّهَبِ
تُوْهِى بِأَجْوَاءِ الْخُلُودِ فَمَا	لِعَنَاصِرِ الْإِنْسَانِ مِنْ غَرَبٍ
وَإِذَا اسْتَطَعْتَ فَأُصِدِّقِي خَبْرًا	عَنْ نَارِ جِيهَنُومِ وَاللَّهَبِ
أَفَتِلْكَ آرَاءُ الْأَلَى صَدَقُوا	أَمْ أَنَّهَا ضَرْبٌ مِنَ الرَّهَبِ
أَفَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ صَنْعَتَهُ	لِجَهَنَّمَ النَّيِّرَانَ كَالْحَطَبِ
إِنْ كَانَ حَقًّا فَالْجَحِيمُ هُنَا	وَالْمَوْتُ يُخْرِجُنَا مِنَ اللَّهَبِ
فَحَيَاتُنَا فِي الْأَرْضِ بَوْتَقَةٍ	وَالْعَيْشُ بَحْرٌ وَهُوَ ذُو عَبَبٍ

* * *

مَا كَانَ إِنْسَانُ الْكُھُوفِ يَرَى	آرَاءَنَا فِي عَضْرِهِ التَّعَبِ
أَتَرَى الَّذِي أَحْيَاهُ خَلَفَهُ	عَصْرًا أَسِيرَ سَلَاسِلِ النُّوْبِ
عَجَبًا أَظَلَّ الْوَحْيُ مُخْتَبِئًا	حَتَّى أَتَى مُوسَى مِنَ السَّحْبِ!
أَجْدَادَنَا الْأَجْرَامَ قَدْ عَبَدُوا	وَتَنَقَّلُوا فِي سَهْمِهِ الرَّبِّ
جَعَلُوا قُوَى الْأَكْوَانِ إِلَهَةً	وَأَمَامَهَا خَرُّوا عَلَى الرِّكْبِ
وَأَرْنَهُمُ الْأَوْهَامُ مُعْجِزَةً	مِنْ كُلِّ إِلَهَةٍ لِكُلِّ نَبِيٍّ
وَاسْتَنْطَقُوا الْأَصْنَامَ صَامِتَةً	فَأَجَابَتْ الْأَصْنَامُ كُلُّ غَيْبِي
وَاسْتَغْفَرُوهَا عَنْ مَاثِمِهِمْ	بِذَبَائِحِ الْإِجْلَالِ وَالرَّهَبِ
دَانُوا بِأَذْيَانٍ قَدْ ازْدَهَرَتْ	كَالْأَرْضِ فِي أَثْوَابِهَا الْقَشْبِ
صَاغُوا لَهَا تِيْجَانَ عَظَمَتِهَا	«مَنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ»
وَالنَّاسُ بَيْنَ الْمُدَّعِينَ غَدَا	مِثْلَ الْأَصَمِّ بِمُخْفَلِ الْخَطْبِ
كُلُّ الْخَلَائِقِ إِلَهَتْ قَدَمًا	حَتَّى جَمَارِ الْحَيِّ ذِي الذَّنْبِ
إِنِّي لَأَقْرَأُ هَازِلًا بِهِمْ	يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ سَيَهْرَأُ بِي

* * *

هَذَا الْوُجُودُ وَلَيْسَ نُدْرِكُهُ
كُنَّا نَظُنُّ الْخَلْقَ مُنْخَصَرًّا
حَتَّى أَتَانَا الْعِلْمُ يُنْبِئُنَا
وَلَسَوْفَ يَأْتِي الْعِلْمُ بَعْدَ عَدٍ
فَالْيَوْمُ يَهْدِمُ مَا بَنَاهُ لَنَا
فَاسْرَحْ بِهَذَا الْكُونِ مُتَّئِدًا
وَاعْمَلْ، هِيَ الْأَحْيَاءُ قَدْ خُلِقَتْ
إِنِّي لَأَقْرَأُ هَازِنًا بِهِم

سِرٌّ غَرِيبٌ غَامِضُ الْحُجُبِ
فِي أَرْضِنَا كَالزَّعَمِ فِي الْكُتُبِ
أَنَّ الْحَيَاةَ كَذَاكَ فِي الشُّهُبِ
بَغَرَائِبٍ عَنْ رُبْعِهَا الْخَصْبِ
أَمْسِ الدُّبُورَ وَفِي عَدٍ حَرْبِي
وَالْقُ الْمُنُونُ بِهِزَّةِ الطَّرَبِ
لِجَلَائِلِ الْأَعْمَالِ وَالنَّصَبِ
يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ سَيَهْزَأُ بِي

(٤) الأربعون

كنت ظننت الأمر كما سأقول، أما اليوم وقد بلغت الستين فلا أذهب ذاك المذهب.

مَا لِي وَمَا لَكَ أَيُّهَا الْجِسْمُ
ذَهَبَ الشَّبَابُ وَمَاتَ كُلُّ رَجَا
وَإِذَا انْقَضَى عَهْدُ الشَّبَابِ فَلَا
وَالْأَرْبَعِينَ إِذَا بَلَغْتَ فَقُلْ
فَالْعَيْنُ تَدْمَعُ دُونَ مَا سَبَبَ
وَالْأَذُنُ تَشْكُو الثَّقَلِ مِنْ صَمَمٍ
إِنِّي لَأَحْسِبُ أَنَّي رَجُلٌ
عَجَبًا لَنَا وَالدهرُ يَخْدَعُنَا
وَنَظُنُّ أَنَّ الدهرَ يُسْعِدُنَا
إِنْ لَمْ تَتَلَّ فِي الْأَرْبَعِينَ مُنَى
وَإِذَا انْطَوَى بَرْدُ الشَّبَابِ فَلَا
إِنَّ الْحَيَاةَ شَيْبَةً خَطَرَتْ

مَضَتْ الْهَبُولَى وَامْحَى الرَّسْمُ
يَصُبُّو إِلَيْهِ الْمَرْءُ أَوْ يَسْمُو
تَرْجُ الْحَيَاةَ فَكُلُّهَا سَقَمٌ
لَمْ يَبْقَ لِي فِي الْعَمْرِ إِلَّا اسْمٌ
وَالضُّرْسُ لَا خُضْدٌ وَلَا قِضْمٌ
فِيهَا، وَتِلْكَ الْكَفُّ تَلْتَمُّ
وَأَنَا الْعَجُوزُ الْعَاجِزُ الْهَمُّ
نَسَعَى لِدُنْيَانَا وَنَهْتَمُّ
وَالدهرُ فِي تَرِيَاقِهِ السَّمُّ
فَارْهَدْ بِهَذَا الْكُونِ يَا عَمُّ
يُرْجَى لَهُ نَشْرٌ وَلَا ضَمُّ
كَالطُّيْفِ، سَمْعًا أَيُّهَا الصَّمُّ

(٥) في ابن صديق

توفي ابن أعز أصدقائي بعد موت أبيه وأمه، فقدمت لمرثاته بهذه الأبيات.

يَا أَحِي، مَا تَرَى، تُفِيدُ الْحَيَاةُ
إِنَّ مَوْتَ الْإِنْسَانِ عِنْدِي خَيْرٌ
وَفِرَاقُ الدُّنْيَا أَعَزُّ وَأَهْنَأُ
وَأَرَى الْيَوْمَ مِثْلَ أَمْسٍ فَلَا تَأْسَفُ
لَيْسَ فِي الْأَرْضِ رَاحَةٌ لِابْنِ أَنْثَى
إِنَّكُمْ فِي الْفَنَاءِ أَهْنَأُ مِنَّا
إِنَّ عَيْشَ الْفَتَى الْجَحِيمِ، وَفِي الْمَوْتِ
خَوْفُونَا مِنَ الْمَمَاتِ وَقَالُوا
فَكَّرْهُنَا لِقَاءَ رَبِّ رَحِيمٍ
وَالْإِلَهَ الْعَظِيمِ، وَالْعَقْلُ يُوحِي
أَصْحِيحُ رَبِّي وَقُوفُكَ قُرْبِي
أَتَدِينُ الْوَرَى بِعَدْلِ رَهِيْبٍ
إِنْ يَكُنْ ذَا تَفَقُّ مَحَبَّةُ أُمِّي
لَيْسَ هَذَا ظَنِّي بِحُكْمِكَ رَبِّي
كَمْ أَسَاءَتِ الضُّحَى إِلَيْهَا وَكَانَتْ
لَا تَدْنِي يَا رَبِّ وَأَغْفِرْ ذُنُوبِي
إِنْ يَكُ الْعَبْدُ دُونَ ذَنْبٍ فَهَلْ يُعْرِ
حَبَّرْتَنِي أَعْمَالُ رَبِّي وَأَوْصَافُ
كُلِّ يَوْمٍ يَرْمِي بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ

فِي بِلَادٍ فِيهَا الْحَيَاةُ مَمَاتٍ
مِنْ حَيَاةٍ تَسُودُ فِيهَا الطُّغَاةُ
مِنْ بَقَاءٍ دَامَتْ بِهِ الْأَنَاتُ
عَلَى الْعُمَرِ، مَا بِهِ طَيِّبَاتُ
مَا تَقُولُونَ أَيُّهَا الْأَمْوَاتُ؟
فَانْبِذُوا كُلَّ مَا رَوَاهُ الرُّوَاةُ
تَ نَعِيمٌ مِنْ دُونِهِ الْجَنَّاتُ
يَا لِنَارٍ تَزُجُّ فِيهَا الْعُتَاةُ
صَغُرَتْ دُونَ قَدَرِهِ الزَّلَّاتُ
لَا تَرَى فِي عُيُونِهِ الْهَفَوَاتُ
مِثْلَ خَصَمٍ، وَفِي الْخُلُودِ قَضَاةُ؟
مِثْلَمَا أَنْبَأَتْ بِهِ التَّوَرَاةُ
حُبِّ رَبِّ مِنْ صُنْعِهِ الْكَائِنَاتُ
أَتَفُوقُ الْمُكُونُ الْأُمَمَاتُ
تَمَّجِي فِي الدَّجَنَةِ السَّيِّئَاتُ
فَهِيَ لَا شَيْءَ، كُلُّهَا حَسَنَاتُ
فَمَا عِنْدَ رَبِّهِ رَحِمَاتُ
إِلَهِي فَضَلَّتِ النَّظَرَاتُ
فَتَصْمِي سَهَامِهِ الصَّائِبَاتُ

١

أَنَا لَنْ أَعُودَ كَمَا أَنَا أَبَدًا
أَنَا لُغْزُ هَذَا الْكَوْنِ يَجْهَلُنِي
لَيْسَ الْوُجُودُ سِوَى مُكَافَحَةٍ
أَرَى فِي الْوُجُودِ مَعَانِي الْحَيَاةِ
إِذَا أَدْرَكَ النَّاسُ مَفْعُولَهَا
دَعَا مَا ادْعَاهُ النَّابِغُونَ فَمَا
وَالسِّرُّ سَوْفَ يَظِلُّ مَكْتُومًا
عَقْلِي وَلَسْتُ أَصِيرُ مَعْلُومًا
بَيْنَ الْكَوَائِنِ فَهِيَ فِي حَرْبٍ
يَحَارُ بِتَفْسِيرِهَا الْعَاقِلُ
يَحِيرُهُمْ ذَلِكَ الْفَاعِلُ
رَأَيْ النَّوَائِغِ غَيْرُ هَذَيْنِ

* * *

إِنِّي رَأَيْتُ الْكَوْنَ مُتَّحِدًا
مَا تَفَرَّقَ الْأَحْدَاثُ سَلَكْتَهُ
قُلْ لِلَّذِي قَدْ قَامَ يُنْذِرُنَا
تَقُولُونَ لَيْسَتْ حَيَاةُ الْوَرَى
وَنَرْحَلُ يَوْمًا لِدَارِ الْبَقَا
إِنْ صَحَّ قَوْلُ الرَّاعِمِينَ فَقَدْ
جِسْمًا وَلَسْتُ تَرَاهُ مَهْدُومًا
أَضْحَى بِكَفِّ الدَّهْرِ مَنْظُومًا
بِالْمَوْتِ، سِرٌّ بِالْمَسْكِ الرَّحْبِ
سِوَى مَوْقِفٍ فِيهِ وَيْلٌ وَضِيقٌ
فَهَيَّئِ رَفِيقَكَ قَبْلَ الطَّرِيقِ
هَيَّأْتُ إِيمَانِي بِوُجْدَانِي

٢

وَجِدْتُ وَمَا شِئْتُ فِي أُمَّةٍ
وَأِنْ قَامَ فِيهَا زَعِيمٌ جَرِي
وَكَمْ فِي التَّوَارِيخِ مِنْ شَاهِدٍ
وَكَمْ فِي بِلَادِي مِنْ مُدَّعٍ
وَكَمْ مُنَادٍ لِحَيِّ الْوَطَنِ
تَرَاهُ هُرُوبًا إِلَى الْخُلُوةِ
يَقُولُ فَتَاهَا وَلَا يَغْفَلُ
يَمُوتُ مِنَ الْيَأْسِ أَوْ يَخْذَلُ
عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَلَى قَتَلُوا
يَقُولُ وَأَقْوَالُهُ لَا يَعْجِي
وَيَشْكُو الْحَيَاةَ وَسُوءَ الْمَصِيرِ
مَتَى قَرَعَ الْأَذْنَ صَوْتُ النَّفِيرِ

* * *

إِذَا مَا سَطَوْنَا عَلَى بَعْضِنَا وَنَفْعَلْ غَيْرَ الَّذِي نَشْتَهِي
فَنَحْنُ الرَّجَالُ اللَّيْثُ الْغَضَابِ وَمَنْ زَارَنَا طَمَعَتْ نَفْسُهُ
وَنُسَيِّدِي الثَّنَاءِ بِغَيْرِ حِسَابِ وَإِنَّا لَقَوْمٌ أَلْفَنَّا الْخُضُوعَ
بِنَا وَاعْتَلَى فَوْقَ مَتْنِ السَّحَابِ نُقَادُ لِمَنْ شَاءَنَا بِالرَّسَنِ
وَنَأْكُلُ بِالدُّلِّ حُبْزَ الدُّمُوعِ فَيَا حَافِظَ الْأَمَنِ فِي أَرْضِنَا
وَمَنْ شَاءَ كَانَ عَلَيْنَا الْأَمِيرُ

٣

عَبْدَنَّاكَ يَا شَمْسُ فِيمَا مَضَى فَبَيْنَ تِي الْبِلَادِ مَقَامُ الْعِبَادَةِ
وَأَمُّ الْحَيَاةِ، وَنُورُ الْوُجُودِ فَإِنَّكَ غَابَةُ نَارٍ وَنُورٍ
وَأَيُّ الْكَوَاكِبِ لَمْ نَعْبُدِ فَإِنَّ عِبَادَ النَّاسِ مِنْ أَعْبُدِ
فَلَوْلَا وَجُودُكَ لَمْ نُوْجِدِ فَإِنْ غَبَتْ عَنَّْا فَلَا تَطْلُعِي
تَسِيرُ وَقَدْ هَزَأَتْ بِالْوُجُودِ وَنَمْنَا عَلَى مِثْلِ نَارِ الْغَضَا
لَأَنَّا جَهَلْنَا مَعَانِي الْوُجُودِ وَفَسَادَتْ قُرُودٌ وَذَلَّتْ أَسُودُ

* * *

قَفِي حَدَّثِينَا عَنِ الْمَشْرِقِ وَدَارَ الزَّمَانِ بِأَلِ الْعَبَا
وَمِنْ شَعْبِهِ الْمَيِّتِ لَا تَضْحَكِي فَيَا أَرْضُ مَهْلًا وَلَا تُسْرِعِي
فَإِنَّ الْمُقَدَّرَ سَوْفَ يَكُونُ وَهَلْ تَسْتَقِيلُ وَهَلْ تَرْتَقِي
نَسُودُ الْبَسِيطِ، نُذِيرُ الشُّنُونِ وَهَلْ تَرْتَقِي
فَقَرَقْنَا الدَّهْرَ أَيْدِي سَبَا وَهَلْ تَسْتَقِيلُ وَهَلْ تَرْتَقِي
عَسَى أَنْ تَعُودَ عُصُورُ الْجُدُودِ وَهَلْ تَسْتَقِيلُ وَهَلْ تَرْتَقِي
مَوَاطِنُ قَوْمٍ بِدُونِ جُنُودِ

صَحْتُ يَا لَيْلُ كَمْ تَكْتُمُ حُرٌّ
فَاسْتَمِعْ يَا دُجَى، شَكَاةَ أَدِيبٍ
صَارَ فِيهَا الْغَرِيبُ، وَهُوَ فَتَاهَا
بُقْعَةً يَرْتَقِي الْكَذُوبُ وَيَسْعُدُ
فَتَصْبِرْ يَا حُرَّهَا، فَلَأَمَانُ
إِنَّمَا الْحُرُّ يَتَّقِي مَا يَضُرُّ
فِي دِيَارِكَ وَاشْتَكَى وَتَظَلَّمَ
مِنْ بِلَادٍ أَمْسَى بِهَا يَتَأَلَّمُ
إِنْ دَعَتْهُ لَبَى الدُّعَاءِ وَأَقْدَمَ
فِي حِمَاها، وَالصَّادِقُ الْحُرُّ يَنْكَدُ
سَوْفَ يَأْتِي، إِنْ الرَّجَاءُ قَرِيبُ
ثَابِتُ الْجَاشِ إِنْ دَعَتْهُ الْخُطُوبُ

* * *

أَيَّ خَيْرٍ أَرْجُو وَمَاذَا أَرْوَمُ
يَطْلُبُونَ الرِّقَى مِنْ غَيْرِ بَذَلٍ
وَإِذَا مَا دَعَوْتَهُمْ لِمُفِيدٍ
فَارْعَوَاءِ يَا مَعْشَرَ الْأَغْنِيَاءِ
فَعِنَّاكُمْ إِنْ زَانَهُ الْإِحْسَانُ
فِي اغْتِنَاءِ اللَّئَامِ إِثْمٌ عَظِيمٌ
مِنْ بِلَادٍ غَنِيَّتُهَا لِلْمُضَرَّةِ
وَالْقَلِيلُ الْقَلِيلُ يَأْتِي مَبْرَهُ
جَدَّفُوا فِي قُلُوبِهِمْ أَلْفَ مَرَّةٍ
وَأَنْفَقُوا أَلْفَ فِي سَبِيلِ الْعَلَاءِ
كَانَ خَيْرًا، أَوْ لَا فَقُولِي مُصِيبُ
قَدْ جَنَاهُ عَلَى الْأَنَامِ النَّصِيبُ

زَحْمُوا الْأَطْيَارَ فِي أَجْوَانِهَا
أَفْسَدُوا الْأَفْقَ بِمَا قَدْ نَفَثُوا
أَطْلَقُوا الْأَطْمَاعَ فِي مَضْمَارِهَا
ذَلِكَ الْإِنْسَانُ شَيْطَانٌ رَجِيمٌ
أَفْسَدَ الدُّنْيَا وَقَدْ رَامَ السَّمَاءَ
ضَاقَتِ الْأَرْضُ عَلَى أَرْجَائِهَا
وَمَشَوْا مَا بَيْنَ أَثْنَاءِ الْأَثِيرِ
فِيهِ مِنْ غَارَاتٍ وَئِيلَ وَشُرُورِ
فَارْتَمَى الْخَيْرُ عَلَى الْأَرْضِ أَسِيرُ
فَاسْتَعِدِّي لِلِقَاءِ يَا نُجُومُ
فَاغْلِقِي فِي وَجْهِهِ بَابَ الْفَلَكَ
عَنْهُ فَاعْلُولِي وَلِلْجَوِّ امْتَلِكِ

* * *

أَيُّهَا الْمَرِيخُ رَحَّبْ بِالْأَلَى
شَاقَهُمْ مَعَ شَقَّةِ الْبُعْدِ لِقَاكَ

فَاقْتَبَسْ مَا شِئْتَ مِنْ أَدْيَانِهِمْ
أَنْتَ جَارُ الْأَرْضِ وَالْجَارُ أَخٌ
ضَلَّ أَهْلُ الْعِلْمِ فِيمَا اعْتَقَدُوا
وَأَرَى الطَّائِرَ يَنْحُو الْأَنْجَمَا
لَيْسَ يَا ابْنَ الْأَرْضِ شَرٌّ فِي الْعُلَا
لَيْتَ شَعْرِي هَلْ يَرَاهُمْ مَنْ يَرَاكَ
أَتَرَانَا مِثْلَمَا نَحْنُ نَرَاكَ
كَضَلَالِ الْقَوْمِ فِيمَا عَبَدُوا
يُشْبِهُ الْغَائِصَ مَا بَيْنَ السَّمَكَ
فَقِسِ الْمُخْفِي بِالظَّاهِرِ لَكَ

٦

عَجَبًا كَيْفَ تَرْهَبُ الْمَوْتَ نَفْسِي
كَيْفَ أَخْشَى يَوْمًا سَأَرْقُدُ فِيهِ
فَهَذِي الْحَيَاةَ وَأَخْبَارُهَا
أَقَاصِيصُ أَفْكِ وَأَنْصَارُهَا
أَيُّ فَرْقٍ مَا بَيْنَ يَوْمِي وَأُمْسِي
أُنَاجِي الْعَقْلَ وَالْعِلْمَا
وَيَطِيرُ الْفُؤَادُ مِنْ ذِكْرَاهُ
مُسْتَرِيحًا، وَيَسْتَرِيحُ اللَّهُ
أَسَاطِيرُ يَضْحَكُ مِنْهَا عَدِي
تَقُودُ الْأَنَامَ بِلَا مَقُودِ
فَبِلَيْلِ الضَّلَالِ أَضْحِي وَأُمْسِي
بِرُوحَاتِي وَغِدَوَاتِي
فَأَلْقَى الْهَمَّ وَالْغَمَّا

كُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ فِيهِ حَيَاةٌ
لَيْسَ فَرْقٌ بَيْنَ الْكَوَائِنِ إِلَّا
وَلَا فَرْقٌ بَيْنَ خَلَايَا الصُّخُورِ
فَهَذِي تَصِيحُ وَهَذِي تَمُورُ
لَيْسَتْ الْكَائِنَاتُ إِلَّا وَجُودُ
أَرَى أَكْوَانَنَا جِسْمًا
تَتَجَلَّى كَالنُّورِ فِي النَّبْرَاسِ
بِاخْتِلَافِ الْهَيْئَاتِ وَالْإِحْسَاسِ
وَبَيْنَ خَلَايَا الْوَرَى وَالنَّبَاتِ
وَتِلْكَ تَذُوبُ لِتُعْطِيَ الْحَيَاةَ
وَلَهُ بِالتَّغْيِيرَاتِ الْخُلُودُ
تُغَيِّرُ إِذْ تَشَا الْأَحْوَالُ
مِنْهُ الْأَسْمَ وَالرَّسْمَا

٧

فَتَشَتْ عَنْ نَفْسِي الَّتِي رَقَدَتْ
وَسَأَلْتُهَا عَمَّا تَكَابِدُهُ
نَادَيْتُهَا فَرَجَعْتُ مُنْخَذِلًا
قَدْ ضَعْتُ بَيْنَ الْوَحْيِ وَالْعِلْمِ
أَوَاهٍ، قَدْ ضَيَّعْتُ إِيمَانِي
وَالنَّفْسُ قَدْ ضَلَّتْ وَمَا وَجَدَتْ

بَيْنَ الْقُبُورِ تُسَامِرُ الْعَدَمَا
فِي الْغَيْبِ بَيْنَ جَهَنَّمَ وَسَمَا
وَكَذَاكَ مَنْ يَسْتَصْرِخُ الرَّمَمَا
وَعَدَوْتُ أَرْمِي دُونَ مَا أَصْمِي
وَسَبَحْتُ فِي طَامٍ مِنَ الشَّكِّ
بَعْضُ الْيَقِينِ فَبِتُّ فِي ضَنْكَ

* * *

إِنْ مِتُّ لَا تَسْتَفْجِصُوا عَنِّي
لَا تَسْأَلُوا أَحْشَاءَ أَرْضِكُمْ
بَلْ فَاسْأَلُوا عَنِّي الْهَوَاءَ فِيهِ
هِيَ قُوَّةٌ مِنْهُ أَخَذْنَاهَا
وَأَرَى النَّبَاتَ أَعَزَّ إِخْوَانِي
قَدْ ضَعْتُ بَيْنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ

فَوْقَ النُّجُومِ فَابْنِنَا أَمْدُ
إِنَّ اللَّهِيْبَ هُنَاكَ يَتَّقِدُ
النَّفْسُ بَعْدَ الْمَوْتِ تَتَّحِدُ
وَالْيَهْ إِنَّ مِتْنَا أَعَدْنَاهَا
يُولِي بِلَا مَنْ وَلَا شَكِّ
فَتَجَلَّدِي يَا نَفْسُ، لَا تَبْكِي

٨

هُوَ بُقْعَةُ أَرْضٍ يَحْمِيهَا
وَعَلَيْهَا كَمْ غَرَسُوا عَلَمَا
إِنْ كُرِمَ يَخْتَالُوا تَبِهَا
أَوَاهُمْ قَدْ أَذَكْتُ شَجْنِي
طِمَعُوا بِرِقَابِ الْبَشَرِيَّةِ
فَبَارِضَ الْحَقِّ أَرَى وَطَنِي

قَوْمٌ نَشْتُوا بِضَوَاحِيهَا
وَلَهُ سَجْدُوا وَسَقَوْهُ دَمَا
أَوْ حُقِّرَ بَاتُوا فِي ضَرَمِ
يُنَمِّيْهَا أَغْوَانُ الْمَحْنِ
فَاسْتَأَقَوْهَا بِالْوَطَنِيَّةِ
وَعَلَيْهَا خَفَّاقُ عِلْمِي

* * *

حَيِّ الْأَوْطَانَ وَأَبْنَاهَا
فَالنَّصْرُ أَسِيرٌ لِلِوَاهَا

يَا أَرْضَا نَامِ الْأَجْدَادُ فِيهَا وَعَلَى الدُّنْيَا سَادُوا
وَبِهَا نَادَى الرُّسُلُ اللَّهَ بِالرُّوحِ أَفَدَّيْهَا وَدَمِي
وَطَنِي يَا مَهْدَ الْأَدْيَانِ يَا مَهْبِطَ وَحْيِ الرَّحْمَنِ
هَذَا وَطَنِي يُحِبِّي الرِّمَمَا أَنْقَى الدُّنْيَا أَرْضًا وَسَمَا
مَا أَشْهَى مَوْتَ الْإِنْسَانِ مِنْ أَجْلِ الْمَوْطِنِ وَالْعِلْمِ

٩

صَحَّحْنَا مِنْ تَأْلِيفِ الْأَوَائِلِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَدْحِ الْجَزِيلِ
وَقُمْنَا الْيَوْمَ نَمْدُحُ كُلَّ جَاهِلٍ بِأَوْصَافٍ تَدْفُقُ كَالسُّيُولِ
فَقُلْنَا ذَاكَ عَلَامٌ وَعَامِلٌ وَهَذَا لَا يُشَقُّ لَهُ غُبَارٌ
وَذَا فَهَامَةٌ زَهَتْ الدِّيَارُ بِهِ فَخْرًا وَقَدْ شَرَفَ الْأَعَارِبُ
وهَذَا أَلْمَعِيُّ فَيَلْسُوفُ وَهَذَا شَاعِرُ الْعَصْرِ الظَّرِيفُ
كَأَنَّنا فِي أَعْصُرٍ ظَلَمُهَا ضَافِي الْحَلِكِ

* * *

وَتُضَحِّكُنِي تَقَارِيطُ الْجَرَائِدِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَدْحِ الْقَبِيحِ
تَرَى فِي كُلِّ دِيْوَانٍ فَرَائِدَ وَتَدْعُو كُلَّ عِيٍّ بِالْفَصِيحِ
وَلَمْ تَسْمَعْ هُنَاكَ نَقْدَ نَاقِدٍ فَكُلُّ الْكُتُبِ آيٌ مِنْزَلَاتِ
وَأَفْضَحُ مَا رَأَيْتُ مُقَدِّمَاتِ تَقْلَدُنَا بِهَا الْقَوْمُ الْأَجَانِبِ
عَدَا يَزْدَانُ صَدْرُ الْكُتُبِ فِيهَا لِيَحْتَرِمَ الْمُؤَلِّفَ قَارِئُوهَا
بِضَاعَةٍ مَعْرُوفَةٍ تَحْكُ لِي أَحْكُ لَكَ

١٠

إِذَا ابْتَسَمَ الثَّغْرُ حَتَّى أَنْجَلَى
وَأَلْفَيْتُ ثَوْبَ التَّجْمُلِ يَسْتُرُ
وَشَاهَدْتُ قَوْمًا هَوُوا كَالْقَلَلِ
وَرَحِبَ قَوْمٌ وَقَاضَ اللِّسَانُ
ظَلَامُ الْمُدَاجَاةِ فِي الْمَجْلِسِ
قُبْحُ الْخَبَائِثِ فِي الْأَنْفُسِ
بَلْثَمَ وَضَمَّ وَطَبَعَ الْقَبْلِ
بِمَا يُسْتَلَذُّ وَيُسْتَعَذَّبُ
لَقَدْ مَزَجُوهُ بِمَا يَعَذِبُ

* * *

فَتِلْكَ السِّيَاسَةُ بَيْنَ الْمَلَا
وَكَمْ مِنْ شُعُوبٍ بِهَا قُتِلَتْ
وَمَنْ فَاقَ كَذِبًا عَلَى قَرْيَةٍ
أَرَى الْكَذِبَ فِي حَرَكَاتِ الْبَشَرِ
رِيَاءٌ وَخَبْثٌ بَعِيدُ الْمَدَى
بَغِيرِ سَيُوفٍ وَدُونِ مُدَى
دَعْوَةُ الْعِصَامِيِّ وَالنَّابِغَةِ
قَدِيمُ الْعَهْدِ أَضَلَّ الْفِكْرِ
سَوَى الدَّمْعِ مِنْ مَقْلَةٍ يُسْكَبُ
وَأَمَّا الدَّمُوعُ فَلَا تَكْذِبُ
وَلَيْسَ يَعْبُرُ سِرَّ الْجَنَانِ
فَكُلُّ الْجَوَارِحِ تُبْدِي الْوَلَا

١١

إِنِّي أَرَى الْأَوْطَانَ سَائِرَةً
بَاتَتْ تَدْبُ عَلَى الْعَصَا عَجْرًا
وَتَعَصَّبَتْ فِي الدِّينِ فَافْتَرَقَتْ
يَا سَامِعِي صَوْتِي أَجِيبُونِي
نَحْوَ الْخَرَابِ طَرِيدَةَ النُّوبِ
مُنْقَادَةً بِزِمَامِ كُلِّ غَبِي
حَوْلَ الْمَنَاصِبِ مِنْبَعِ النُّوبِ
أَوْ مَا التَّعَصُّبُ أَفَةُ الدِّينِ
تَشَقَّى بِدَاءِ تَفَرُّقِ الْمَلِكِ
يَقْتَادُهَا الرِّعْمَاءُ لِلْحِينِ
تَرَكَ الْبِلَادَ عَدِيدَةَ الْعِلَلِ
فَعَدَتْ نَظِيرَ الضَّبِّ حَائِرَةً

* * *

يَا مَنْ يُعِيدُ لِشَرْقِنَا أُمَمًا
وَأَرَى الطُّمُوحَ تَكَادُ تَلْمُسُهُ
تَسْعَى لِرَدِّ شَبَابِهِ الزَّاهِي
كَفِّي وَيُبرِّمُ حَبْلُنَا الْوَاهِي

مَا أُمَّتِي هَذِي سِوَى أُمَّةٍ
تَغْتَرُّ فِي الْقَابِ مَمْلَكَةٍ
أَفْ لِقَوْمٍ خَيَّبُوا أَمَلِي
يَا دَمْعَ خُنْتِ الْعَهْدَ وَالذِّمَمَا
عَرِيَتْ مِنَ الْأَمَجَادِ وَالْجَاهِ
وَالدَّهْرُ يُبْدِي كُلَّ مَضْحَكَةٍ
وَاسْتَنْزَفُوا دَمْعِي مِنَ الْمُقَلِّ
فَسَقَطَتْ مِثْلَ الْبَعْضِ مِنْ عَيْنِي

١٢

لَقَدْ «ضَحَّمْتُ» الْقَابَهَا «دَوْلَةَ الْأَدَبِ»
وَيَا وَيْلَتِي كَمْ كَثُرَتْ «جُنُّ عُبْقُرٍ»
فَهَذَا يُسَمَّى «فَيْلَسُوفًا» وَمَا لَهُ
وَهَذَا «أَمِيرُ الشُّعْرِ» وَالْكُونُ دَارُهُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُقِيمُوا لَهُمْ «مَلِكٌ»
يَسْحُ عَلَى أَعْوَانِهِ هَاطِلِ الرُّتَبِ
فَيَا لَكَ مَلِكًا أَنْبَتَتْهُ الْجَرَائِدُ
إِذَا نَظَّمَ «الْمَعْرُوفُ» عَقْدًا مِنَ الْحَصَى
وَإِنْ يَأْتِ مَجْهُولٌ «بِمُعْجَزِ أَحْمَدٍ»
مَنَاسِجُ الْقَابِ نَصُولُ صِبَاغِهَا
تَعْلَقُ مِنْ تَهَوَاهُ فِي قُبَّةِ الْفَلَكَ
إِذَا قَالَ هَذَا، فَالْقَوَافِي خَوَالِدُ

فَصَارَتْ «كَنْقَدِ الْيَوْمِ» اسْمًا بِلَا جِسْمٍ
وَيَا مَنْ لِهَذَا «الْإِنْسِ» مِنْ جَيْشِهِ الضُّخْمِ
سِوَى الْمُسَخِّ عَنْ عُرْبٍ وَنَسَخَ عَنِ الْعَجْمِ
وَذَاكَ «نَبِيٌّ» وَالْأَثِيرُ إِزَارُهُ
لَهُ دَوْلَةٌ، يُعْنَى لِكُرْسِيِّهِ الْعَالِيِ
فَنَحْيَا بِالْفَاطِطِ، وَنَسْمُو بِأَقْوَالِ
عَلَى دَمَنِ الْأَغْرَاضِ، وَآ خِلْجَةَ الْأَدَبِ
فَمَنْ دُونِهِ «فِي عَرْفِهَا» الْمَاسُ وَالذَّهَبُ
رَأَى بِمَحْيَاهَا أَزْوَارَ «أَبِي لَهَبٍ»
يُجَمِّلُهَا لِلنَّاطِرِينَ دِبَاغُهَا
لَتَهْدِي بَنِي الدُّنْيَا إِلَى «رَبْعِهِ الْخَالِيِ»
كَإِنْجِيلِ عَيْسَى، فَلْيَنْمِ نَاعِمَ الْبَالِ

١٣

وكم بيننا من مدَّعٍ، ليس يستحي
«فَتَرْمُسُهُ أَحْلَى مِنَ اللُّوزِ» طعمة
لكم بثَّ أشراكًا ليصطادَ شهرةً
من الناس، والدعوى بضاعة قاصر
أَلَا كُلُّ وَجَاهِدٍ تَغْتَنِمُ أَجْرَ صَابِرٍ!
زيوفًا، متى كان الحجى غر طائر؟

وَلِلطَّبْلِ وَالْمِزْمَارِ وَالذُّفِّ مَعْشَر
فَمَنْ لِي «بِنَقَادٍ» يَمْزُقُ ذَا الْحَلَكِ
يَطْبُلُ، تَعْظِيمًا لَهُ، وَيَزْمُرُ
وَيَخْلَعُ عَنْ «آدَابِنَا» ثَوْبَهَا الْبَالِي
فَعَهْدُ «قَفَا نَبِك» انطوى، منذ أجيال
وَيَهْتَفُ بِالْمَجْوَادِ «أَحْسَنْتَ» فَاصْدَحِ

* * *

«وَيَا مَوْمِيَاءَ الشَّعْرِ» هَلْ مِنْ تَجْدِيدِ
وَيَا شَعْرَاءَ الْعَصْرِ، هُدُّوا خِيَامَكُمْ
فَأَيَّامُ «فِرْعَوْنَ» الْقَرِيضِ اسْتَقَلَّتْ
وَحُلُّوا أَذْكَارَ الظُّعْنِ، فَالْنَوَقُ وَلَّتْ
وَصَوَّغُوا الْمَبَانِي لَا تَشَابَ بِلَكْنَةٍ
سَيَقْضِي بِهَا التَّارِيخُ، إِنْ كُنْتُمْ لَهَا
بِرَائِعَ فَنٍّ، لَا بِلَمَّاعَةِ الْآلِ
وَلَيْسَتْ بِمَهْرٍ، فَالْعَلَى مَهْرَهَا غَالٍ
«إِمَارَتَكُمْ» هُزءٌ، فَلَا تَحْلَمُوا بِهَا
فَسَعِيًّا لِبَدْعٍ، فَالْتَفَوْقُ يَمْتَلِكُ
فَإِنِّي أَرَى الْأَصْدَافَ رَهْنَ التَّبَدُّدِ

أشكال وألوان

(١) العاصفة

قلتها على أثر عاصفة كان لها أثر طيب حين مرت بأرضنا، كسرت الفروع الشائخة من الأشجار فجددت شبابها.

وَتَوَارَى الْهَلَالُ يَنْظُرُ شَزْرَا
خَطَّهَا الْفَجْرُ فَاَمَحَتْ لَيْسَ تُقْرَا
شَقَّ مَسْحِ الدَّجْنِ شَقًّا وَفَرًّا
وَاسْتَشَاطَ الْخَضَمُ مَدًّا وَجَزْرَا
فَانْقَضَتِ الصَّوَاعِقُ جَمْرَا
فَأَمْسَى الرَّقِيعُ يَزَارُ زَارَا
وَيَحُ أُمُّ مِنَ الشَّوَاعِرِ تَبْرَا
فَحَدِيثُ يَفِيضُ خَوْفًا وَدُعْرَا
وَالْبَرَائِكِينَ زَفْرَةً تُوجَدُ حَرَى
وَتَكْتُمُتُ لَسَتِ تَفْشِيْنَ سِرَا
فِي ثَنَائِكَ جَاعِلِ الْبَحْرِ بَرَا
وَضَهْوَرُ الْآبَاءِ بِالْعَطْفِ أَحْرَى
شَكْلًا، وَيَمْلَأُ الْكُونُ بَرًّا!
بَنِيهَا بِوَالِدٍ عَزَّ قَدْرَا
خَفِيًّا؟ فَصَاحِبِ الْبَيْتِ أَدْرَى

هَبَّتِ الرِّيحُ وَالْفَضَاءُ اكْفَهْرًا
طَمَسَ النُّورُ غَيْرَ بَعْضِ سَطُورِ
فَانْتَضَى الْبَرْقُ سَيْفَ نَوْرٍ ضَيْلِ
وَانْبَرَى الرَّعْدُ مُنْذِرًا بِالْبَلَايَا
وَتَنَادَتْ عَنَاصِرُ الْكَوْنِ لِلثَّوْرَةِ
وَتَبَارَتْ فِي حُلْبَةِ الْأَفَقِ الرِّيحُ
عَلِمُونَا أَنَّ الطَّبِيعَةَ أُمُّ
يَا لَأُمِّ خَرَسَاءٍ إِنْ حَدَّثْتُنَا
هَمْسُهَا الرَّعْدُ، وَالصَّوَاعِقُ نَجْوَى
وَيْكَ أُمَّا مِنْحَتِ أَلْفِ لِسَانِ
أَيُّهَا الْأُمُّ كَيْفَ تُخَفِّينَ عَنَّا
كَيْفَ تُخَفِّينَ وَالِدًا عَنْ بَنِيهِ
أَصْحِيحُ يَا أُمُّ أَنْ أَبِي مِثْلِي
فَأَجِيبِي فَوَاجِبُ الْأُمِّ تَعْرِيفُ
خَبْرِيْنِي: أَحَلَّ فِي بَيْتِكَ اللَّهُ

أَهْ ضَيَّعْتُهُ فَضَاعَ رَجَائِي
فَأَجَابْتُ إِنِّي أَفْتَشُ عَنْهُ
قُلْتُ: هَلَا، فَقَطَّبْتُ حَاجِبَيْهَا
وَأَشَارْتُ إِلَى الْعَوَاصِفِ أَنْ سِيرِي
فَاسْتَجَرْنَا مِنْهَا بِهَا وَهِيَ غَضْبَى
فَرَأَيْنَا الْأَمْوَاجَ تَقْتَحِمُ الشَّطَّ
كَمْ بُيُوتٍ تَهْدَمَتْ وَقُصُورٍ
فَمِنْ الدُّوْحِ أَسْجَدْتُ كُلَّ عَاتٍ
وَإِذَا بِالْأَشْجَارِ تَمْشِي الْهُوِينَا
ثَوْرَةٌ فِي الطَّبِيعَةِ اجْتَا حَتِ الْأَرْضِ
لَمْ أَجِدْ مَنْجِدًا، فَنَادَيْتُ رَبًّا
مَنْ تَرَانِي دَعَوْتُ لَوْلَا سَمَاعِي

فَأَرْشِدِينِي إِلَيْهِ يَكْسِبُكَ أَجْرًا
لَا أَرَاهُ، سُبْحَانَهُ، أَيْنَ قَرَأَ
فَأَرْتَنِي فِي وَجْهِهَا الْجَهْمُ شَرًّا
وَهْدِي مِنْ أَرْضِهِ مَا اشْمَخَرَّا
وَاعْتَصَمْنَا بِصَخْرَةٍ نَتَذَرَى
جُبُوشًا عَمِيَاءَ كَرًّا وَفَرًّا
صَيَّرَتْهَا الْعَوَاصِفُ الْهُوجُ قَبْرًا
لَمْ يَعْقُرْ وَجْهًا وَلَمْ يَحْنُ صَدْرًا
ثُمَّ تَكْبُو، سَيَّانَ صَغْرَى وَكَبْرَى
ضَ كَمَا اجْتَا حَ يَعْرَبُ مَلَكٌ كِسْرَى
عَبْدُوهُ فِي الْأَرْضِ عَصْرًا فَعَصْرًا
بِاسْمِهِ فِي الْوُجُودِ سَرًّا وَجَهْرًا

* * *

هَدَأْتُ ثَوْرَةَ الطَّبِيعَةِ وَالرَّيْحِ
فَرَأَيْنَا أَنَّ الَّذِي هَدَمْتَهُ
إِنَّمَا هَذِهِ الْعَوَاصِفُ أَيْدٍ
رَسَلُ النَّشْءِ وَالتَّجَدُّدُ بَلْ زَنْدٍ
فَهَيَّ كَفُّ الْوُجُودِ تَهْدِمُ مَا لَا
لَيْتَ مِنْ هَذِهِ «الْعَوَاصِفِ» أَصْنَا
لِنَرَى كُلَّ هَائِرٍ وَعَقِيمٍ
مَنْ تَقَالِيدِنَا وَمَنْ كُلُّ عُرْفٍ
إِنَّمَا هَذِهِ الْعَوَاصِفُ فَاسُّ

تَهَادَتْ فِي الْجَوِّ تَمْشِي السَّبْطَرَى
كَانَ بِالْهَدْمِ وَالتَّجَدُّدِ أُخْرَى
مَا تُهْدَمُ يَمْنَى تَشِيدُهُ يَسْرَى
مَتَى شَاءَتِ الطَّبِيعَةُ يَوْرَى
يَسْتَطِيعُ الْبَقَاءُ بَرًّا وَبَحْرًا
فَمَا تُثِيرُ الْأَكْوَانُ طَيًّا وَنَشْرًا
لَيْسَ يَجْدِي نَفْعًا تَدَاعَى وَخَرًّا
صَيَّرَتْهُ الْأَرَاءُ دِينًا وَكُفْرًا
تَقْصُمُ الشَّامَخَاتِ ظَهْرًا فَظَهْرًا

* * *

مَنْ قَدِيمٍ وَالْمَرْءُ نَضُوْ افْتِكَارٍ
مَا رَأَاهُ بِالْأَمْسِ عِلْمًا يَرَاهُ
إِنَّ أَرَاهُ لِأَشْبَهُ بِالْمَوْجِ

أَشْغَلْتُهُ «الْأَشْيَاءُ» دَهْرًا فَدَهْرًا
الْيَوْمَ جَهْلًا، وَهَكَذَا الْعُمْرُ مَرًّا
تَوَالِي، تَمْحُو الْجَدِيدَةُ أُخْرَى

* * *

أوغَلَ الفكرَ في التأملِ حتى لآخَ وجهُ النهارِ يفتُرُ بشرا
فبدا لي أَنَّ الطبيعةَ فرحى بالذي قَلَبَتْهُ حتى استقرَّ
إِيهِ يَا أُمِّ إِن أُرِدْتَ صلاحًا فاكْنُسي بالعواصفِ الكونَ طرًا

(٢) الأعمدة الستة

زرت قلعة بعلبك مرات، وكنت كل مرة أرى فيها شيئاً جديداً لم يبدُ لي من قبل فسجلت
ذكرياتي في هذه القصيدة.

قلعة بعلبك

خَرَسَاءُ لَا تُبْدِي خطابَ هِيَ وَحْيِي فَنَ خَالِدِ
قد أُنْزِلَتْ آيَاتُهُ لم يَهْدِنَا قُرْأُوهَا
فَهُنَا كِتَابُ الْأَوَّلِينَ فَكَأَنَّهَا أَشْلَاءُ جَبَارِ
من حولها عَمَدٌ قِيَامُ جدرانها فيها الجنانُ
قد عُلِّقَتْ فيها الثمار وكأَنَّهَا أعنابها
فاعجب لجنَّاتٍ عليها تبدي نيبوياً دون ما
أشباه أُسْدٍ نَصَبَتْ أقعَت على ضيمٍ ونمنا
يا بعلبك وإن هَرَمْتَ لله حسنك هازئًا

صَمَاءٌ لَا رَدَّتْ جَوَابَ أَحْيَا الْأُلُوهَةَ فِي الترابِ
عَمَدًا هِيَ الْعَجَبُ الْعَجَابِ فِي فَهْمِهَا سُبُلُ الصَوَابِ
وَبَعْلَبِكَ أُمُّ الْكِتَابِ صَرِيحٌ وَسَطُ غَابِ
لِلصَّلَاةِ وَلَا ثَوَابِ تَضُمُّ مَا احْلُولَى وَطَابِ
تُسِيلُ رُؤْيَيْهَا الرضابِ بَرَّاقَةٌ، فِي شَهْرِ آبِ
الْأُسْدِ رَابِضَةٌ غَضَابِ فَتَكِ إِذَا مَا الْخَطْبُ نَابِ
رَمَزًا لِأَشْبَاهِ الشَّبَابِ مَكْرَهِينَ عَلَى الْمَصَابِ
عَلَيْكَ سَيَمَاءُ الشَّبَابِ مَهْمَا تَقَادِمُ بِالْخَضَابِ

بك يلمسُ الفنُّ الحديث
وترين «إيفل» كالصبيِّ
أعجيبه الدنيا التي
إنَّ الشعوبَ جميعَها
فكأنَّكَ السلطان يعرض
يا بنت فونيقي ويا
أشبهتِ دنيانا فسرَّ
ذُللتِ يا بنت الدهور

المعجزاتِ بلا حساب
وإن تنطَّق بالسحاب
لعبتُ بها أيدي الخراب
مررتُ أمامك بالحراب
جيشه يوم الضراب
أُختَ الخلود المستطاب
رَ كما كبحرَ ذي عباب
وكننتِ أَمَنع من عقاب

الأمدة الستة

لله دُرُكِ ستَّة
قامتُ على أقدامها
كالعاشقاتِ وقفنَ في
أو بُسلٍ من يعرب
وقفوا كمن ضلُّوا السبيل
أو أنها جنِّيَّة
قد سرَّحت أبصارها
كم فاتحين رأَتْ ولم
يا بعلبك تصبَّري
فكأنما لبنان قربك
وكلاكما نُصِّبتما
فالملك رهن الفاتحين

قد شاهدتُ ألف انقلاب
مستهزئاتٍ بالصعاب
الشرفاتِ يرقبنَ الصحاب
بينَ الشوامخ والهضاب
فأنشدوا حسنَ المآب
من عبقرٍ ليست تصاب
ما بين هاتيك الهضاب
يفتح لهم للعود باب
فالملتقى يوم الحساب
حاجب الملك المهاب
هدفًا لفتح واغتصاب
يذل وانشقَّ الحجاب

الهيكل المقدسة

وقدسَ أقداسِ الحَقابِ	يا هيكلِ الحبِّ القديمِ
وله الدعاءُ المستجابِ	الحبُّ ربُّ دائمِ
وحيه مُقلُّ الكعابِ	وعبيده كثرٌ ومهبطِ
لعبيدهِ رحبِ الرحابِ	وبكلِّ أرضٍ هيكلِ
أودى به غضُّ الإهابِ	يا ليتَ من خلقِ الورى
مكروهةِ شرِّ العذابِ	فالموتُ في شيخوخةِ
كالفراشةِ وَالْحَبَابِ	يَا لَيْتَ نَشْيِي وَارْتِقَائِي
واكتئابِ واضطرابِ	حتى أموتَ بلا تمنِّ
مناحةُ تبكي الشبابِ	فالعيشُ من بعدِ الشبابِ

* * *

فَمُؤْمَلُ الثنَّتينِ خابِ	دع لو وليتَ كليهما
وتستحيلُ إلى ترابِ	فالناسُ تفنى كالهشيمِ
فغداً تصيرُ إلى يبابِ	يا كُونُ لا تُفْنِ الورى
يَمَّحي مثلَ الضبابِ	إِنَّ المَكُونُ من ضبابِ

* * *

أقوامُهُ مثلَ الذئابِ	لا تبكِ كَوْنَ مطامعِ
أَمسى وليس له كلابِ	تعدو وتفتك بالذي

١٩٢٩

(٣) الكاهن الجندي

كنا في كاتدرائية مار يوحنا جبيل الأثرية على أثر نهاية حرب ١٩١٤، فإذا بجندي من صف الضباط يدخل الكنيسة ويتوجه تَوًّا إلى «الخوروس»، ثم يلج «السكرستيا» ويخرج منها كاهنًا عليه ثياب التقديس، وشهدت قداسه فخلقت ذكرى المشهد هذا الموضوع.

دخل الكنيسة عارضاً بتَّاراً
أم خالها حصناً، على سَرَواتِهِ
ومشى يقْدُ المؤمنين كأنَّه
بطلٌ إلى «الخوروس» شدَّ مشمراً
أَظنُّه حسبَ الكنيسة غارا
رَصْدُ، وأوى صحنها ثَوَّاراً
السَّبَّاح يضربُ يَمَنَةً ويسارا
وهناك صلَّى لمحَّةً وتواری

* * *

أَنْظُرْ إليه فقد تحوَّلَ كاهنًا
قد غاب صقرًا ثم أب فراشَةً
وأنام في ظلِّ الصليبِ مهنِّدًا
صلَّى، فضجُّوا، ثم خرَّ فهمهموا
شكُّوا، فلاحَتْ: اسمعوا أقوالهم
فتماسكُ «الإيمان» وابتسم «الرجا»
ومضى يمثلُ ماهرًا مأساتَهُ
تخضَّلُ لحيتُهُ تقَى ووقارا
فأصارَ جلجلةَ الفداء مطارا
سكرانَ، يحلم بالرقاب عقارا
وتناظروا متعجبين، حيارى
وتجنَّبوا الأعمال والأوزارا
وإذا «المحبة» تسدل الأستارا
للمؤمنين وتمَّم الأسرارا

* * *

بسط اليدين وما استحي من ربِّه
وتلا من الإنجيلِ غرَّةَ آيه
عجبًا أينطقُ بالسلام لسانه
إنَّ يُرغموه على الوغى فصليبُهُ
قد خطَّ للأجيالِ خمسةَ أسطرٍ
حتى يبارك فتيةً وعذارى
أحبيب عدوِّك وارحم الأشرارا
ويدها توقد في الصدور النارا
ينبيه كيف يقاوم القهَّارا
لا غير، شرد وحيها الأسفارا

* * *

يا كاهنَ ابن الله، مالك جامحًا
الراحة الحمراء كيف مددتها
أَتَكُونُ كاهنُهُ، وتجهل قوله:
أنسيت آيتَهُ لدن همُّوا به:
أَدَمُ البريء يحلُّ في لاهوتكم
ماذا جنى القومُ الذين قتلتمهم
أُميَّتَم الأطفال، ويحك، ما تقو
قُدْ للنعيمِ الجحفلَ الجَرَّارًا
نحو الصليبِ أما خشيت العارا!
ويلَ المشكِّكِ صبيةً وصغارا
أغمدَ حسامك تأمِّن الأقدارا
والناصرى يحرمُ الإضرارا
أَتَكُونُ يا راعي، لنا جزَّارا
ل غداً لربك، إن بلغت الدارا

ورأيتَ دِيانًا رهيبًا مثلما
يا قائدَ العميانِ، كيلا يهبطوا
ما جَوَزَ الإنجيلُ حملَكُمُ العصا
أرسلتُمُ مثلَ النَّعَاجِ فَحَقَّقُوا
ويلاه من حملٍ تحوّلَ قُنْفُذًا
ظنَّ المسيحَ محاربًا في قوله:
حدّثتَ عنه المؤمنين مرارا
في حفرةٍ، سَه، لا تَكُنْ حَفَّارًا
أفتشـهرون الصارمَ البتّارًا
ظنَّ الشهيد، وسامحوا معشارا
يُذِمِّكَ مَلَمْسُهُ، وَيُقْصِي الجارا
ما جنّت كي ألقى السلام فتارا

* * *

وأجلّت طرفي في «الحنية» كي أرى
فرايتُ وجهًا كالحياةِ عزيمةً
ولمحتُ تكليحًا يبينُ ويختفي
فإذا المساميرُ الثلاثةُ فُكِّكَتْ
وَتَحَوَّلَتْ تلكَ الجهومةُ بسمةً
وأجال في «الخوروس» نظرةً يائسٍ
غفرانك اللهم، ثانيةً، لهم
يا خيبتي بمعاشِرٍ تلمذتهم
الحملَ الوديعَ، الغالبَ الأدهارا
تبني وتهدمُ لا تملُ ثَوَارًا
كالظلِّ شارفٍ منقعا مؤارا
ومشى الصليب كمن يرومُ فرارا
حمراء، يرعب هولها الجبّارا
فتذكّر الماضي، وصاح جهارا:
ضاعت دمائي، والبناءُ انهارا
سفكوا الدماء، وألّهُوا الدينارا

١٩٢٥

(٤) أطروفة الخلود

موضوع أجهل الأسباب التي دعت إلى معالجته.

في برية الأزل

بَلِيلٌ يَتِيمٌ خَافَقَ القَلْبَ، إِنَّ مَشَى
رَأَيْتُ كَأَنِّي هَائِمٌ فِي تَنُوفَةٍ
وقفتُ وأشباحي، ولي من أناملني
بِهِ القَدَرُ الأعْمى تَخَوَّنَهُ الجَهُدُ
يَضِلُّ بِهَا المَوْتُ السَّبِيلَ إِذَا يَعدو
عيونٌ، ولكن لا اهتداء ولا رشَدُ

تَلَمَّسْتُ فِيكَ النِّهَجَ فَالتَّبَسَّ الْقَصْدُ
فَقُلْتُ لِنَفْسِي: أَجْمَلِي فَهَذَا الْحَدُّ

فَيَا لَكَ لَيْلًا كَالْمَعْرِي ضَرَارَةً
وَأَمْسَيْتُ ضَيْفَ الْوَهْمِ غَيْرَ مَكْرَمٍ

المؤتمر العزرائيلي

عَلَيْهِ، وَفِيهِ الشَّيْبُ وَالْغِلْمَةُ الْمُرْدُ
عَبَادِيدُ جِنِّ نَحْوِ حَلْبَتِهِمْ شَذُوا
وَحَفُوا بِمَوْلَاهُمْ كَأَنَّهُمُ الْجَنْدُ
عَلَى جَبَلٍ نَهْدٍ هَوَى الْجَبَلِ النَّهْدُ
وَرَبِّكَ، أُمُّ الْأَرْزِ فَامْتَثِلِ الْحَشْدُ
جَبِينًا كَوَجْهِ الْبَحْرِ خَضَخَضَهُ الرُّعْدُ
الصَّوَاعِقُ مِنْهَا أَلْسُنُ النَّارِ تَمْتَدُّ
سَنَتْرَكُهُمْ أَحْيَاءَ فِي الْأَرْضِ مَا وَدُّوا
وَلَوْ لَا الْمَنِيَا لَمْ يَزُرْ دَارَهُمْ رَغْدُ
يَدَايَ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْ قَبْضِهَا بَدُ
عَجُوزٌ عَلَيْهِ مِنْ تَجَارِبِهِ بَرْدُ
بِفَعْلَتِنَا الشَّنْعَاءِ، وَالْبَشَرُ امْتَدُّوا؟
إِذَا ارْتَفَعَ الْكَابُوسُ دَابَّهُمُ الْجَحْدُ
وَقَدْ كَادَتْ الْأَفَاقُ مِنْهُمْ تَنْسُدُ
فَشَاوَرُ بِهِ الْبَارِي، فَنَحْنُ لَهُ جَنْدُ
الْأَلَى زَعَمُوا أَنَّ الْوُجُودَ لَهُمْ عَبْدُ
وَمِنْهُمْ قَالُوا إِنَّ جَدَّهُمُ الْقَرْدُ
يُرِيدُونَ تَسْخِيرَ الْوُجُودِ وَلَا حَمْدُ
وَلَوْ قَدَرُوا صَالُوا عَلَيْكَ وَمَا ارْتَدُّوا!
وَأَعْمَارُهُمْ فِي قَبْضَتِي، وَمَعِيَ عَهْدُ
أَلَا فَاسْتَرِيحُوا بَرَهَةً يَذْهَبُ الْحَقْدُ

وَصَوَّتَ عِزْرَائِيلُ فَالتَفَّ رَهْطُهُ
خَفَافًا أَتَوْا مِنْ كُلِّ فَجٍّ كَأَنَّهُمْ
وَأُرْهَفَتِ الْأَذَانُ سَمْعًا وَطَاعَةً
فَسَاوَرَنِي هُمُ عَنِيفٌ إِذَا اسْتَوَى
وَمَدَّدَ عِزْرَائِيلُ كَفًّا ظَنَنْتُهَا
وَأَبْدَى لَهُمْ عَنْ نَاجِذِيهِ مَقْطَبًا
وَصَاحَ بِصَوْتِ جَهْوَرِيٍّ كَأَنَّهُ
حَذَارَ نَفُوسِ النَّاسِ، لَا تَفْتَكُوا بِهِمْ
يَسْبُونَنَا إِنْ مَيِّتَ مَاتَ مِنْهُمْ
وَكَمْ مِنْ نَفُوسٍ نَتْنَةً لَا تَمْسُهَا
فَجَاوِبُهُ مِنْ قَوْمِهِ ذُو مَكَانَةٍ
وَمَاذَا يَقُولُ اللَّهُ عَنَّا إِذَا دَرَى
حَنَانِيكَ وَاسْمِعْ قَوْلَتِي فِي عَصَابَةٍ
تَصَامَمَتْ آهَاتُ الْمَشَايِخِ مِنْهُمْ
إِذَا شَتَّتَ إِمْضَاءَ الَّذِي أَنْتَ قَائِلُ
أَبَى الطَّبْعُ مِنَّا أَنْ نَكُونَ كَخَلْقِهِ
فَمِنْهُمْ قَالُوا إِنَّهُمْ مِثْلُ رَبِّهِمْ
وَقَدْ نَاصَبُوا الْكَوْنَ الْعِدَاءَ كَأَنَّهُمْ
أَعْنُ مِثْلَهُمْ، يَا شَيْخُ، تَعْفُو تَكْرَمًا
فَجَاوَبَ عِزْرَائِيلُ: إِنِّي مَفْوُضُ
عَلَيَّ رَبِّي، اتْرَكُوهُمْ لَيْسَ أَمْرُ

فصاحوا جميعاً: قد أَطْعَنَّا وَعَوَّلُوا على رأيه في الأمر، وانفرط العقدُ
فناديتُ: وأبشراهُ، قد صرتُ خالداً وزال ابتسامي وانقضى الزمن النكدُ

دهر لا موت فيه

تَصَرَّمَ ذَاكَ الْجَيْلُ إِلَّا أَقَلَّهُ فضاقت على الناسِ الأباطحُ والنجدُ
فأصبحَ يأوي منهم كلُّ فرسخٍ أُلُوفَ الْوَرَى، فاستُصِلَ الْحُبُّ وَالْوُدُ
وَمَاتَ حَنَاؤُ النَّاسِ، وَالرَّحْمَةُ أَمَحَتْ ولم يبقَ في الدنيا جمالٌ ولا وجد
فهذا نظيرُ القوسِ هاوٍ مفرَّكُحٍ وهكذا أعمى، أو أصمُّ به شهد
وأصبحَ هَمُّ النَّشْءِ عَوْلَ جُدُودِهِمْ بعهدٍ قليلٍ رزقُهُ ما بهِ رِفْدُ

شكوى

تشكَّى بنو الدنيا وودُّوا فناءهم وقد باتَ ذَاكَ الْأَمْرُ طَوْقَهُمْ يَعدو
إذا انتحروا لم يُدرِكوا بانتحارِهِمْ سوى أَلَمٍ مُضْنٍ يحرِّشُهُ الْعَمَدُ
وباءٌ وأمراضٌ، وخورٌ عزائمٍ سلاسلُ بؤسٍ ضاقَ عن حصرها العُدُ

ثورة الأبالسة

وضَجَّتْ شياطينُ الجحيمِ، وأوشكت جهنَّمُهم تُطْفَأُ، وأدركها الخمدُ
فَإِذَا مَنْ لِعِزَائِيلَ حِينَ تَجَمَّعُوا إذا حلَّ وفدُ جاء من خليفه وفدُ
زبانيةٍ سحْمُ الوجوهِ، ولسنهم بنائِقُ نارٍ تستطيلُ وترتدُّ
وأذنانهم مثلُ السياطِ كأنَّها نيازِكُ من جلدِ السماواتِ تنقُدُّ
مَوارِجُ فَوْقَ الْأَرْضِ تَمْشِي كأنَّها بُنَيَاتُ بَرَكَاثٍ بها الوجدُ يشتدُّ

أشاروا إليه بالأكف فخلتُها
وصاحوا بعزرائيل: أين وقودنا
كلاليب، نارُ الكير في قلبها تبدو
بنو الناس، فالأتون أعوزهُ الوجد

حيرة الله

وقال إله الأفق: أين بنو الوري؟
فشمر عزرائيل للفتك داعياً
فنظف وجه الأرض من معشر الوني
فمن سنوات لم يجئ منهم فرد
ذويه، فهبت من مرايضها الأسد
فلم ينج إلا الأروع الأمثل الإد

بعد آلاف السنين

وخبر موسى شعبه أن رهطهم
وأثبت في توراته أن جدهم
وما زال إيلياً يعيش منعماً
فساءتهم هذي الحياة قصيرة
وصاغوا نعيمًا أعجز العقل وصفه
فجاءت سماهم صورة عن خيالهم
ولا تخش من نطارهم يرفعونه
ودع عنك ما صاغ الخيال فإنما
هب الخلد يا هذا، كما صوروا لنا
فلا خير في خلد بدون متاعب
مئات من الأعوام عاشوا وما كدوا
متوشاحاً قد عاش ألفاً بها الجد
وأحنوخ موفور الهنا لم يمت بعد
فقالوا بعمر بعدها ما له حد
فيالنعيم كل أيامه سعد
فإن سألوا قل هكذا اخترع الخلد
ليحتكر القتاء للبعض والقتد
هو البؤ يستمرى به الضرع والنهد
فأفته أني به أبداً عبد
وما في يدي من أمره الحل والعقد

(٥) اللقيط

كنت مارًا صباح يوم، فإذا بي أشاهد طفلًا مقمطًا ملقى على جانب الطريق فقلت في هذا.

قد حطمنا الأكوازَ حول الغدير
لم ندعها تفضُّلاً وسخاءً
قد مجبنا الشراب مجاً ولولا
وكذا زهدُ كل واهنٍ عظيمٍ
خير ما في الحياة عهد شبابٍ
إن تولى الشباب فالعيش ذكرى
أيُّها الجاهل المرجي اغتباطاً
هفوات الشباب أَشْهَى وأحلى
وأرى هذه الشرائع طرّاً
خلق الناس شرعهم كشرع
كيف ترجو الإناثُ منه المساواة
أفسدوها — إن كان ذاك فساداً —
نفضوا طوقهم وقالوا: براءً
أيُّ ذنبٍ على الإناء إذا ما
أيُّ ذنبٍ على الثرى إن طرَحنا
أسقطوها، وبالخنا عيروها
وعلى أمرها هم غلبوها

* * *

لا تلمني إذا اهتزت فهذي
فهي «كالرايو» يحدثُ نفسي
وتريني «كالسينماء» خيالاتٍ
وإذا ما سكرتُ حبّاً، فعذراً
صاح لولا الهوى اضمحل كيان
إنما الحبُّ يحفظ النوع حتى

كهرباءُ العيون ملء الأثير
بحديثِ المنى ونجوى الضمير
الأمانى محيطَةٌ بسريري
فالمدام الرقاق رهن الثغور
النَّاسُ واندكَّ أسُّ ذَا المعمور
يتنامى على توالي العصور

فإذا زال فالحياة هباءً وأرى في تفاعل الكون حباً
أجهل الناس من يعنف أنثى لا تلمها على اختيار جميل
لا تلمها على انتقاء جميل لا تعنف أنثى إذا لم تبالي
أن تدع بعلمها لتختار خيراً فهي منقادة لناموس خلق
طيرته الرياح شر مطير وأرى الحب نامياً في الصخور
إن أحببت، فالحب روح الشعور وجهه دونه محياً النور
فانتقاء الجميل صنع خبير باشتراع يسر شيخ وخوري
منه فالجرم قابل التكفير الأنسب الكف في صراع الدهور

* * *

أيهذا المنبوذ ما أنصف النأ أي ذنب قد اقترفت لتشقى
فالجبانان أدركاك حياءً ليت شعري ما الفرق بينك
حرم الناس ما أرادوا فكم في من لنا بالجسور يقضي عليها
إيه يا نفس في قرارك الحق لك في الكون ألف قيد وقيد
س ولا الشرع فيك يا ابن السرور وتربى كالأجرب المهجور
بقمات الظلام والديجور والأنبياء طراً من سيد وحقير
الشرع من ضلّة ومن تحيير باتباع الإصلاح والتحوير
فلبي نداءه تستنيري فاكسري هذه القيود وسيري

١٩٢٥

(٦) اذكريه

قصيدة قلتها حين زرت فلسطين أول مرة، سنة ١٩٢٨، ومشيت على درب الصليب، فكنت أشد تأثراً في مكانين: عليه صهيون حيث تعشى السيد مع تلاميذه، ثم حين وقفت عند ما يسميه النصارى «الأبواب الدهرية»، وهو الذي يسميه اليهود المبكى.

كان يا نفس ههنا، وتواري قد تغنى لهم، فلم يعرفوه
عن بني الناس، في ثنايا الوجود فرمى «نأيه» بوجه العبيد

شاعر كان عن ذويه غريبًا
شاعر الحب والمنى، خالغ الإيمان
فاسمعيه يعيدُ عهدًا جديدًا
اسمعيه على التلال يغني
شاعر ناسك تبرّد في الحب
جاء يستعرضُ الدهورَ ويملي
فأرانا العهد العتيقَ صريعًا
انظري واسمعي، فها شبح الشاعر
وانظريني من بعدِ عشرينَ جيلًا

ليس يأسى، كالطائر الغريد
طريقًا على رجاء الخلود
لسليمان، عهدَ ذاك النشيد
فوقَ أطلال جَدِّه داود
عفيقًا، نصير كُلاًّ طريد
خيرَ درسٍ على الزمانِ العتيد
تحت أقدام فجر عصر جديد
يلقي الحنينَ في الجلمود
اتملاً من لطفه المعهود

* * *

غمّه أن يرى إلهاً أكلًا
فأراهم ربًا غفورًا رحيمًا
انظريه فإنه يتعشى
ذاك درس سما اتضاعًا وحبًا
أفلا تنظرينه يكسر الخبزَ
رافعًا كأسه تفيض بروقًا
انظريه فالخوفُ يغشى محيّا
اسمعيه ينبئُ الرسلَ بالتلميح
وانظريه يواكل الغر يوضاس
وانظريني من بعدِ عشرينَ جيلًا

مستبدًا بالناس رب جنود
يطلب القلبَ دونَ شقّ الجلود
واسألي ما لخصره المشدود
فخذي من دروسه واستفيدي
ويعطي بكل حبٍّ وجود
باهراتٍ وقاصفاتٍ رعود
وقد كانَ أَمْسٍ كالصنديد
فالرسلُ في اضطرابٍ شديد
ويوضاس عابث بالعهود
اتملاً من لطفه المعهود

* * *

أيها السيد البهّي المحيا
قد تمنيت أكلة الفصح حتى
أيها المنقذُ المخلّد لم يفدوك
إن هذي الدنيا كما كانتِ الأَمْسِ
فالذي يبتغي جديدَ المبادي
إنَّ مأساتك العظيمةَ ما زالت

يا عروسَ الآلام والتجديد
كنت فصحاءً للغاشمين السود
باللصّ يوم ذاك العيد
تلاقي الجديدَ بالتهديد
فليخُطّ قبل ذاك ثوبَ الشهيد
تسيل الدموع فوق الخدود

راقصاتٍ على خدودِ العذارى
 إنَّما «النَّادبات» غيَّرهنَّ الدهرُ
 سيِّدَ المنتهى حنانيكَ وانظرُ
 كيف تمشي مواكبِ المجدِ فينا
 يا نزيلِ العليةِ أمهلْ، فعيني
 قل لعيني من بعدِ عشرينَ جيلاً
 هارباتٍ إلى اللحنِ في الجدودِ
 فالقلبُ قطعةٌ من حديدٍ
 كيف يحنى بالذلِّ رأسُ المسودِ
 ونحيِّي أشباحها بالسجودِ
 تشتتْهي أن تراك بعد الصدودِ
 تتملاً من لطفك المعهودِ

١٩٢٨

(٧) الشاعر

إن موت الصديق الوفي الشاعر وديع عقل أوحى إلي هذه القصيدة فقلتها فيه.

هجرة الشاعر

حلَّق النسرُ في فضاء الزمان
 وتعالى إلى ذرى الأفق الأعلى
 أيُّها «الساووفيم» رحَّب، فهذا
 شاعرٌ، تنطق الربابة سحرًا
 أزَّرتَه إلهةُ الشعرِ بالنور
 ملكه الكونُ، يطلق الرأي فيه
 مولع القلب بالنجوم الحصان
 يراعي مسيرَه القمَران
 شاعرُ الأرض عائدٌ للجنان
 إن تغنَّى، وينصتُ الثَّقَلان
 فأزرى بالخزِّ والأرجوان
 رُبَّ رأيٍ أطاحَ بالصولجان

الشعراء

أيُّها الغائصون في لجج الأفق
 أيُّ تاج ترصِّعون، فحتَّام
 تشربون الأثير في أكؤس النور
 على اللؤلؤ العظيم الشان
 تهيمون في دجى الوجدان
 وتستعذبون صاب الأمانى

كَأَنَّ الدَّمُوعَ خَمَرَ الدَّنَانِ
تَنْذِرُونَ الْوُجُودَ بِالطُّوفَانِ
ثُمَّ تَحْيَا بِأَلْفِ أَلْفِ لِسَانٍ
وَهِيَ مِنْهُمْ فِي الْكَمِّ وَالْأُرْدَانِ
شَأْنُ «الْفِينِيْقِ»^١ فِي الْأَزْمَانِ
بَعْدَ انْطِفَائِهَا بِثَوَانٍ
يَتَوَارَى كَقَبَسَةِ الْعَجَلَانِ
فَضَاءَتِ بِصَائِرِ الْعَمِيَانِ
خَوَّفُونَا بِالْجَنِّ وَالْغِيلَانِ
أَجَابُوا: يَوْمَ الْقِيَامَةِ دَانَ
عَلَى غَيْرِ سَكَّةِ الْكُهَّانِ
اِكْتَنَابًا فِي وَحْشَةِ الْبَسْتَانِ
يَعَانِي مِنْ قَوْمِهِ مَا يَعَانِي
فَابْتَلَى بِالرَّعَاعِ وَالصَّبِيَانِ
وَالطَّهَارَى مِنْ لَوْثَةِ الْأَوْثَانِ
فَلِتَطْهِّرْهَا مِنَ الْأُدْرَانِ

تَسْتَقُونَ الدَّمُوعَ مِنْ أَعْيُنِ الْبُؤْسِ
فَتَهْبُونَ ثَائِرِينَ سَكَارَى
أَنْتُمْ كَالنَّيْرَانِ، تُفْنِي وَتُفْنَى
يَحْسَبُ «الْبَلَه» أَنَّهُمْ أَطْفَأُوهَا
تَحْرِقُونَ الْأَنَامَ لِلْبُعْثِ وَالتَّطْهِيرِ
أَنْتُمْ شَعْلَةٌ يَقْدِّرُهَا السَّارُونَ
تَلْجُونَ الدُّنْيَا كَطِيفٍ مَلَمٌ
أَنْتُمْ السَّرْجُ زَيْنَتْ هَيْكَلُ الدَّهْرِ
إِنْ ظَهَرْتُمْ كَالنُّورِ فِي الْكَهْفِ لَيْلًا
أَوْ عَرْضْتُمْ مِثْلَ «الْمَذْنَبِ» فِي الْأَفْقِ
قَدْ سَلَكْتُمْ «دَرْبَ الصَّلِيبِ» وَإِنْ سَرْتُمْ
عَيْشَكُمْ كُلَّهُ كَلِيلَةَ يَسُوعَ
أَوْ كَمُوسَى مَا بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَالتِّيهِ
أَوْ كَطَةَ إِذْ هَابَ بِأَسِّ قَرِيْشٍ
أَنْتُمْ الْأَنْقِيَاءُ مِنْ كُلِّ رَجَسٍ
وَإِذَا مَا مَرَرْتُمْ بِوَحُولٍ

وديع عقل

هُوَ ذَا الثَّغْرِ، فَاسْتَرْحَ بِأَمَانٍ
وَالْعَيْشَ مَجَازَ لِلنَّايِغِ الْفَنَّانِ
سَاعَةً فِي طَلَابِ عِبْرِ الزَّمَانِ
إِنْ الشَّرَاعَ كَالْأَكْفَانِ

أَيُّهَا السَّابِحُ الْمَلْجِ، هِنَاءُ
إِنَّمَا الْمَوْتُ مَطْلَعُ الْعَمْرِ
إِنَّمَا النَّعْشُ قَارِبٌ تَعْتَلِيهِ
فُلُكُ الْخَالِدِينَ، يَا أَيُّهَا التَّابُوتُ

^١ الفينيق من طيورنا الخرافية، يحترق في هيكل بعلبك كل نصف قرن ثم ينبعث من رماده ويعود إلى الحياة، يعرفه شعراء الفرنج بالفينيكس وقد ذكروه كثيرًا في أشعارهم.

نفسه

خلودًا كالبحور والولدان
مستجيرٌ بعصمة الفرقان
أنف الشمِّ من ربي لبنان
كارثاتٍ أم جاء بالإحسان
بصروف الزمان والحدثان
لا تبالي بأُمّهات القنان
العيش إلا لخدمة الأوطان
يزهى به على غمدان
إن تناءت عن منّة الإنسان
فهو نبع الإلهام للروحاني
واقص عنه مخدّرات الزواني

أنواحا على أديبٍ عذاراه
أنواحا وشعره «عربي»
أنواحا ونفسه كان فيها
لا يبالي أنزل الدهر فيه
عربيّ روحًا وجسمًا وهزءًا
فكأنّي به السحابة تمشي
عاش حرًّا ولم يكن يتمنّى
كان في كوخه عظيمًا وكان الكوخ
يحسب القوت ثروة ليس تفنى
ثروة الشاعر المطهر بؤس
فاسقه الدمع من عيون العذارى

خلقه

بخطي الشاعر الذكيّ الجنان
كمثل اليراع بين البنان
عطره لا يشوبه بالدخان
ابتهارًا بصفقة استحسان
على «الغير» كالحسود الأناني
بمزايا الأديب في كلّ آن
لم يجئنا إلا بسحر البيان
حيّر الدمع في عيون القيان
واهتزّ هزّة المَرّان
وجافيت خفة البهلوان

كادت الأرض لا تحسّ اتضاعًا
صامت ناطق، تعالى عن الدعوى
فهو كالزهر، لا المباخر، يُهدي
ما سمعناه يضربُ الطبلَ والزمَر
أو أرانا «الحرباء» إن سمع المدح
حبذا أنت يا وديعًا تحلّى
يا لك الله شاعرا «عبقريًا»
فإذا أسمع الندامى نشيدًا
أو علا منبرًا ترنّحت الأعواد
أدب الضاد بالرصانة عزّت

داؤه

ويح يوم رأيتُ هيكله المضيئي
كل يومٍ يهوى جدارُ، فأعظمُ
فرأيتُ الحياة تنسلُّ والموت
يا لعينِ المنون، إن قصر العمر
تداعى مصدّع الأركان
به هولاً تساقط الجدران
عبوساً يفحُّ كالثعبان
وأبدى النواجذ والملوان

الحياة والموت

إن بين الحياة والموت حرباً
فهما عنصرا الوجود فلولا
يا دعاة العتيق من يكره الموتَ
لك بالموت راحة، لو تأملتَ
خوفك الموت في حياتك موتُ
هي أضرى من كل حرب عوان
الموت كانت ألْعوبة الغلمان
وفيه رقيُّنا الإنساني
ولولا مخاوف الأديان
وانتظار المنون شأن الجبان

اللغة

هالني أن رأيت أعمدة الفصحى
قد تتالت شيوخها للمنايا
كدت أخشى أن يستبيح حماها
تهافت من شاهق الإيوان
فإذا ارفض مأتَم قام ثانٍ
الدهرُ، لولا قدسيّة القرآن

زفرة حرى

مع جبريل في حمى رضوان
فاشكُ — لا أسفًا — ذوي السلطان
ضياح المنزّهين الرصان
أديب فكلُّ شيء فان
عن دم ضاع في تراب الهوان
«ووردًا» فجاء «بالزعفران»
وتلقى بالمدح والمهرجان
الشكل، حتى الهواء والبلدان

أيها الشاعر المخلّد، خلّق
وإذا ما اجتمعت بالمتنبي
قل له، ضائع هو الشعر والنثر
ليس يرعى عهد الأديب فإن يُطو
يا أخي، يا وديع، خبر «سعيدًا»
قد رجونا «غارًا»، فأقبل «بالليف»
لم نزل أمة تودع بالسبّ
كلّ ما في أقطارنا طائفِي

* * *

إذ تنادى الإخوانُ للأحزان
طويلاً، إلى شמוש المعاني
ولم يلتجئ إلى ديوان

وا حبيباه، ربّة الشعر ناحت
تندب الشاعر المحدّق كالنسر
ملكه ما يقوله، ما غزا قطّ

دموع الوداع

حببًا ناصعًا كعقد الجمان
صرنَ حزنًا عليك كالمرجان
شماريخ طودنا الفتان
بل موت أنفوس السكّان
نائم طرفه عن الذؤبان
مات حيّ «الرجاء والإيمان»
يوم تأتي سماؤنا بدخان
من يدّعي بلا برهان
وإذا ما خلا، فربُّ السنان

يا حبيبي، إليك إكليل عهدي
يأنف الصدق أن أقول: دموعي
لم أغيض عليك نهرًا ولم أهبط
ليس موت الأجساد يخرم الأطواد
لست أرثيك بل رثائي لشعب
فهنيئًا لك الخلود، أيا من
فسأرعى لك «المحبّة» حتّى
وسأكفيك شرّ شانئك الأبتّر
من يرى نفسه الحصان المجلي

من يبيع الزجاجَ درًّا وماسًّا ويبيزُ التجَّارَ في «الإعلان»

آب ١٩٣٣

(٨) يهوذا الإسخريوطي

أطروني اللعناتِ عشرينَ جيلاً
 إنْ أَكُنْ مذنباً فقد تبت يا نا
 تاب قبلي «داودُ» عمًّا جناهُ
 بلّ بالمدمعِ السخينِ فراشاً
 فجعلتم منه نبياً عظيماً
 وأنا التائب المسجّل حقّاً
 ضاع حقّي من الخلود كما ضا
 أفمن يذرف الدموعَ كمن ضَحَ
 ليتهم فكَرُوا بأمرِي قليلا
 س، إلى الله بكرة وأصيلا
 مالنّا مسمَعِ الدهور عويلا
 باسطاً فوقهُ الدَمَ المطلولا^٢
 وتلوتم «زبورهُ» ترتيلا
 بدمي صكّ توبتي تسجيلا
 عت دمائي، وما وجدت مقيلا
 حَى بأَيِّامِهِ، وأودى قتيلا

* * *

أيُّها التينة^٢ اصبري، فكلانا
 يأكلُ الناس من ثمارك ما طا
 إنَّ «سرَّ الفداء» لولاي، ما تمَّ
 وأبو الناس ظلٌّ في وحشة «اليم»
 وبنوه «الآباء» ما دخلوا الجنَّة
 أنا أنقذتُهم بتسليمي «الفا»
 أَمْسِيئاً أَعَدُّ إنْ كُنْتُ تَمَمَّ
 إنْ يك الصلب فدية للبرايا
 من بني آدم، يُضامُ طويلا
 ب، ويحكون لعنة لا تزولا
 ولم يعرفِ الوري الإنجيلا
 بَس» يأوي ظلامها المسدولا
 نة طرّاً، وهلّلوا تهليلا
 دي» وتحمله الصليب الثقيل
 تُ الَّذي شاء فاتركوا التضليلا
 فاشكروا لي هذا الصنيع الجميلا

^٢ إشارة إلى قتل أوربا حتي من أجل امرأته.

^٣ تلميحا لقصة التينة التي لعنها السيد المسيح كما رواه الإنجيليون.

«بطرس» عَقَّه ثَلَاثًا وَمَا كُنْ
أَفِيخْفَى عَنِ الْعَيُونِ إِلَهْ
أَفْمُحِييِ الْمَوْتَى يَخَافُ «قِيَافَا»
خَلَّتْهُ ثَائِرًا يَحَاوِلُ تَهْدِيمًا
فَتَنَدَّمْتُ حِينَ أُيْقِنْتُ أَنِّي
قَدْ كَفَانِي نَخْسُ الضَّمِيرِ عَذَابًا
يَا ابْنَ دَاوُدَ، رَحْمَةً، وَأَجْرَنِي
أَنْتَ قَدْ قُلْتَ «بَارِكُوا لِاعْنِيكُمْ»
بَيْتُ يَسُوعَ لَا يَكُونُ لِلْعَنِ
يَا رِفَاقِي، «حَنَّا وَمَتَّى وَلَوْ قَا»
فَاذْكُرُوا «الْخُبْزَ» كَيْفَ تَنْسُونُ خُبْرًا

* * *

يَا يَهُوذَا، وَكَمْ لَنَا مِنْ يَهُوذَا
أَنْتَ قَبَّلْتَهُ، فَصَارَ إِلَى الصَّلْبِ
يَعْلَمُ اللَّهُ، مَا نَقُولُ بَرَهْطٍ
مِنْ يَهُوذَا إِلَى يَهُوذَا، وَلَكِنْ
أَنْتَ تَبِعَ وَاحِدًا بِفَلَسِ، فَفِينَا
كَمْ جَنَاحٌ، قَدْ قَتَلُوا «بَاسِمِهِ» النَّا
يَا يَهُوذَا، قَنَطَتِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ
غَرَّكَ «الْمَالُ» فَانْتَقَضَتْ عَهودًا
مَا تَرَى عَذْرَ بَائِعِيهِ بَغْبِنَ

* * *

٤ يذكر يهوذا بغضب يسوع عندما دخل الهيكل ورآه حانوت بيع وشراء، فقال كلمته الخالدة: «بيتي

بيت الصلاة وقد جعلتموه مغارة للصوص».

٥ كان يهوذا أمين الصندوق وهو يذكر رفاقه بالعشا الشهوي الذي أعده لهم.

يا يهوذا، أقصر فإن تطلبِ الفهم
هو ذا الشمسُ، والبرايا نيامٌ
لَعْنَتِكَ «الأجدادُ» لا ترجِ إلَّا
م من الناس تطلبِ المستحيلا
في كهوفٍ، ظلُّها لن تحولا
لَعْنَاتِ «الأحفاد» جيلا فجيلا

(٩) الوظيفة

إن ورم أنوف أكثر الموظفين في البلاد أوحى إلي موضوعي هذا، فوصفتهم كما رأيت معظمهم عام ١٩٣٢.

تعشَّقها فتيمَّمه هواها
إذا ما الحلمُ جسَّمها خيالاً
كأنَّ المغنطيسَ بوجنتيها
أرى شهداءها في كل عصر
تنازعها بنو وطني فهاجوا
فتاة زانها حسَبُ ودينُ
فإن تك طائفياً أو نبيلاً
وإن كُنْتَ الْفَقِيرَ وَلَوْ نَبِيًّا
فكم كانت على الأوطان حرباً
ألا فاقراً أحاديث الليالي
فلولاها لكنا في نعيم
أجل، لولا الوظائف ما اضمحلت
وما عفى بني «العبَّاس» إلَّا
أما أغوى «البشير» بها هيامٌ
فسل «تيرون» عن «فخر بن معن»
فَكَمْ ضَحَّوْا لها بدمٍ بريءٍ
فويحُ للوظيفة من فتاةٍ
فغناها «أناشيد» الأمانى

وأضناه فجئ بها وتَّاهَا
تمثَّل حينَ رؤيتها الإلهَا
وعن هاروت نمت مقلتها
وقد صبغت دماؤهم لماها
وماجوا، والفتاة لمن سبها
فعزَّ لقاءها فاهجر حماها
تَفُزْ بوصالِها وتَنَلْ رِضاها
فلا تحلم بِها واحذر أذاها
وغير الشعب ما التهمت لظاها
ففيها عبرة لمن ابتغاها
وشمسُ الشرقِ لم تبرح ضحاها
«أميَّة» وانطوى يوماً لواها
تنازعها فبادوا في وغاها
فازرى بالعمومة والتقاها
فكم عانى هنالك من جفاها
ولم تبلغ نفوسهم منهاها
كأنني بابن داود عناها
فأطرب مسمع الدنيا صداها

لقد أصبت بني وطني قديمًا وما انفكوا حيارى في دجاها

* * *

يقول لك الموظف وهو راضٍ	بلادي جنّة وبها تباهى
وإن عزلوه صارت شرّ أرضٍ	وبالظّلام حافلةً رآها
رأوه قبلَ منصبِهِ ذليلاً	فلماً وظّفوه عزّ جأها
وصعّرَ خدّه صلفاً وتيهها	وكالخفّاش حيّره ضياها
تعنّفص واشمخرّ على أخيه	فإنّ حيّاه ما استرعى انتباها
وحلّق في سما الطغيان حتّى	توهّم أنّه أمسى إلها
أتسكّره التحيّة من حقيرٍ	وبالزلفى لسادته اشتراها
إذا قرعوا له بالذلّ باباً	فكم من بابهم مرعّ الجباها
وأبطره الظهور فراح ينسى	ظهوراً نحو طيّته امتطأها
إذا كلّفته أمراً تبدّى	على قسّماته لطفٌ تنأها
فيبسم عن مواعد كاذباتٍ	أرى عرقوبَ قصّر عن مداها

* * *

أيّا قرّدانَ أمّتنا رويداً	ألا تبقون شيئاً من دماها
فقد سقطت بيوت بني أبيكم	وبات البوم يندب من بنأها
على من تحكمون غداً إذا ما	تقلّص ظلّنا فدعوا السفاهها
أيزهيكُم تبايُعكم جزافاً	وسلطتكم مقدّرة خطأها
أنّتم غير أشباح نراها	على «الشاشات» ينطقها سواها
أجل لولا الضرائب ما رفعتم	عقيرتكم وحرّكتكم شفاهها
فأهلاً بالجباة يحدثونا	بأمر حكومة لسنا نراها

* * *

بني أمّي أفيقوا من سبات	وظائفكم ستطحنكم رجاها
فلست أرى الوظائف صالحاتٍ	لغير مهذبٍ يُعلي ذراها
همام لا يُمالئ أو يحابي	ويفرح بالعدالة إن أتأها
إذا كلّفته أمراً فرياً	تمرّد أو بمظلمة أبأها

بني وطني دعوا زيفَ افتخارٍ وخلُّوا الترهاتِ لمن بغاها
فلم أرَ في الوظائفِ غيرَ شُمسٍ ستمنعُ ظهرَها يوماً فتاها

(١٠) الجابي

اشتدت الضائقة في لبنان، فاتحد العسر والجباة على الفلاح اللبناني فقلت هذه القصيدة في ذلك.

١

أُمَّهُ يَا أُمَّهُ جَاءَ الْجَابِي فبِدَارٍ وَاعْتَصِمِي وَرَاءَ الْبَابِ

* * *

قد كان مثلُ الضيفِ ينزل بالقرى حيثُ القرى وحلاوةُ الترحابِ
واليومَ تُنكرهُ الديارُ وكم نرى عندَ الشقاءِ تنكُرُ الأصحابِ
القرشَ عزَّ، وأصبحَ الدينارُ كالنجمِ الملتئمِ بالضبابِ الهابي
إنْ تبغِه، والمستحيلُ بلوغه فالجأَ إلى زيحٍ وأسطرلابِ
يتنافسون بحشدهِ وبنو الثرى باتوا بلا خبزٍ ولا أثوابِ
لله هذا الدهرُ في أحكامِه كيفَ الرعاةُ استنسخَتْ بذئابِ
لا رسلَ بينهم وبين قطيعهم إلَّا الجباة، ألا افتحي للجابي

٢

الزوج ليس هنا وماذا تطلبون اليومَ منا من جديدٍ حسابِ
يا ناسُ غابَ الخبزُ عن أبصارنا ومشتُ صبايانا بلا أثوابِ
لا أفتح الأبوابَ للقومِ الألى وقفوا ببابِ الرزقِ كالحجَّابِ

إن تفتحي ندخل وإلا فاتّقي
 وإذا بمختارِ القريةِ مقبلٌ
 يقضي ويمضي ما يشاءُ وأمرُهُ
 لا تستحي يا هندُ بالفقر، افتحي
 قدّمًا تحطّم أصلب الأخشاب
 كالديك في زهوٍ وفي إعجاب
 كالآي هابطة من المحراب
 أيرى سوى الفقراء وجهُ الجابي

٣

دخلوا العرين فأجفلت أشباله
 وتكدّسوا فوق الحصير وقهقهوا
 هزلى عراة قد تبدّل حسنهم
 وأتى أبوهم، وهو كالنطّار لم
 فاغرورقت عيناه لمّا أبصر الجابي
 أو تطلبون من العديم إتّاوةً
 لم يبقَ غيرُ النيرِ والمحراثِ والفدانِ
 وتراجعوا من مشهد الإرهاب
 جزعًا كأنهم قرود الغاب
 ببشاعة الشمطاء بعد خضاب
 ينشر عليه سوى رقيق إهاب
 وفاض بسرّه الوئاب
 ما أنزلت في سُنّة وكتاب
 هيّا اذهب بها يا جابي

٤

البيت مرهون وأبنائي كما
 فتّش زوايا البيت، خذْ منه الذي
 خبّر حكومتنا الجليّة أنّنا
 أنّا «اشتهدنا الملح» وأسفاه!
 فتكشّر الجابي وأشهد رهطه
 ورأى «طبنجته» معلّقة على
 فمضى بها لمّا تحوّل عنهم
 أبصرتهم فانظر رثيث ثيابي
 تبغي ودعني في أليم عذابي
 في عهدِها نَقْنَا أمرَ الصاب
 والبحر السخيّ على مسافة قاب
 زورًا عليه، ولم يَفْه بسباب
 خدّ الجدار لصدّ ذات الناب
 وتباشروا طرّاً بِراح الجابي

فبكلِّ بيتٍ مأتمٍّ لمصاب	عمَّ الشقاء بني المدائن والقرى
ما بينَ رقصٍ أو كئوسٍ شراب	والسادة الحكام في حفلاتهم
هاوٍ يقيم على شفير خراب	يلهون والشعب المعبد جائع
تدعو إلى العصيان والإضراب	وبكلِّ يوم يخلقون ضريبة
واللهو بالتفريق والأحزاب	فكأنهم وجدوا لإرهاق الورى
ولديه رحمة مجلس النواب	عجباً لهذا الشعب يغفل شأنه
وتجهّزوا فغداً يعود الجابي	يا معشر الفقراء بيعوا المقتنى

مكتوفة الأيدي إلى الأصلاب	من مبلغ «بونسو» رسالة أمة
فالعبد ميسوراً عزيز جناب	إن كان الاستقلال يورث قلة
فتمزقت، فانهض بشعب كاب	«الضفدع» الحمقاء جنت قبلنا
كأننا في عهد حمورابي	أنعيش في هذا الزمان مسخرين
الإرهاق باسم المظهر الخلاب	أفتى محررة الشعوب ألا ترى
واقطع من الأذيال والهداب	فصل لنا الثوب الملائم قدنا
فاسأل، فما يدريك غير الجابي	إن كنت تجهل ما بنا من ضيقة

(١١) شهيد العلم

برغونياه عالم فرنسي ذهب ضحية تجاربه الطبية، كان يعالج بعض الأمراض بالراديوم، فأكل الراديوم يديه الثنتين وقضى عليه.

وهب هذا العالم ما يملك للحكومة لتنفقه على مؤاسة البشرية ثم وصى بجثته للمعهد الطبي.

أثر بي خبره هذا ولا سيما حين وقعت عيني على رسمه فنظمت ما خطر لي إذ ذاك.

أنت الشهيد فم عن الحدثان	أمجاهداً في العلم والعرفان
فهما بفادح خطبه سيان	عزوا المريض مع الفقير كليهما
حتى كبا في حومة الميدان	قد ظل في ساح الدروس مجلياً
بنيوبها ويداه دامتان	كمروض الآساد مات مهشماً
بالراديوم فمات كالشجعان	الموت هاجمه وظل مناضلاً
بسطت لفعل الخير والإحسان	يا راديوم لقد فتكت براحة
وتشلى يمنى العلم والعرفان	أتعف عن أيدي تمد لخلصة
يمناه للعلم الصحيح يمانى	فاليسر في يسراه معقود وفي
والجرح للأبطال خير «نشان»	قد قدروه فقلدوه وسامهم
تروي الحديث عن الجهاد القاني	وجراح أبطال الحياة مباسم

* * *

في جبهة التاريخ بالنيران	هذا شهيد العلم من كتب اسمه
ذكرت له في المكرمات يدان	إن يذكروا فيه لذي فضل يد

* * *

بمعاهد نفعت بني الإنسان	يا ناسكاً والنسك أخرى أن يرى
عمل يحارب علّة الأبدان	ليس النسوك تقشف الأبدان بل
كالراديوم ألا استرح بأمان	سيشع في التاريخ ذكرك خالداً
يقتص من ذاك الأثيم الجاني	ودع الألى اختلسوا الفقير ففي غد
ما بين نهاب وذو إحسان	سرقوا وجدت، فأى بون شاسع
يرعى عهد الفاضل المحسان	أما الوجود فعدله ظلم ولا

* * *

نفح الورى بالمال والجثمان	نطس البلاد تشبهوها بمخلد
جود الطبيب ولو ببعض ثوان	وبه اقتدوا حتى نرى في شرقنا
إن تخل راحتته من الرنان؟	أيموت بينكم المريض معذباً
الإنسان حب الرفق بالحيوان	والغرب قد ألف الحنان وعلم

* * *

أمعالج السرطان هل من عالم
برغونيا، أرى بمنظرِكَ الكثيب
وبكفِّكَ الجماءِ ألقى داعيًا
والشعر ينشده على حدِّ سوا
فينا يعالج مشية السرطان
مهيجًا لقريحتي وبياني
للشعر لا بأنامل المرجان
رجلان؛ ذو حب وذو أشجان

(١٢) مارون محمد

أسميت ابني محمدًا فجاراني في ذلك مهاجر كريم — والمهاجرون سباقون إلى كل كريمة
— هو السيد محمد الحلبي فأسمى ابنه مارون، فجبر خاطري، فقلت هذه الأبيات في
مارون محمد، كما قلت قبلاً في محمد مارون.

يا ابنَ التساهل من بني معروف
عش يا سمِّيَّ فالمسمَّى واحدٌ
أسمائنا — والطائفية هُنا —
عجباً لأجمل بقعةٍ قد قَسَّمت
والدينُ يرمي للسلامة وحدها
فالعيسوي يرى السما مشَّتْ له
ما جاء في الإنجيل والقرآن
عجباً لمن يتفلسون فشَوَّها
ما فرَّق الإخوان إلا طغمة
أراؤنا في الدين مثل نحاتنا
فأجب فتَّى حسب الضلال بصنعنا
بالله قل لي: أي فرقٍ قد غدا
اسلم رسول الحب والتأليف
والفرق في تركيب بعض حروف
تغني المخاطب عن أل التعريف
أبناءها الأديان شرَّ صفوف
فغدا لدينا آية التصنيف
والأحمدي يقول تلك مصيفي
نصُّ الملك لكن جاء بالتحريف
الأديان بالتأويل والتصنيف
عاشت على الأديان عيش الليف
هذاك بصري وهذا كوفي
ما ضلَّ من خرجوا عن المألوف
ما بين مارون وذاك الصوفي

* * *

يا أيُّها القديسُ مارون اغتبطْ
هذا سمِّيكَ من بني معروف

(١٣) النبي محمد

نشرتها «جريدة» الأحرار أولاً ثم تناقلتها صحف شتى، وأخيراً أذاعها على حدة السيد الحاج إبراهيم زين صاحب مكتبة العرفان. ثم جاءني وفد من كبار أئمة المسلمين وشيوخهم يحملون إلي عبادة السيد السنوسي، هدية منه إلى ابني محمد مارون فقبلتها بكل فخر واحتفظت بها كأثر تذكاري. وأخيراً نشرت هذه القصيدة مجلة «الرضوان» التي تصدر في الهند، وقد قدمتها إلى قرائها الكرام بهذه الكلمة، معبرة عن رأيها، قالت:

بما أن رجل الحقيقة نابغة العربية الفذ (مارون بك عبود) المسيحي (مدير الجامعة الوطنية في عالية لبنان) قد أعطى النصفة حقها في الأصحاح بفضل البطل المفدى نبينا المحبوب — صلى الله عليه وآله — غير مكترث بما يكتنفه من النعرات الطائفية الممقوتة لزماً على أبناء الحنيفة المقدسة تقدير مسعاه وشكره على ما أسدى إلى الأمة المرحومة من يد واجبة وصنيع مبرر، فقد اندفع إلى ذلك بدافع الصراحة وحرية الضمير ونزاهة النفس يوم عرف من حق النبي العربي ﷺ وفضله ما عرف منه كثيرون أو صدفت عنه الأهواء والنزعات، ولكن عبقرى (لبنان) مصيخ إلى هتاف الحق بأذن واعية مزدلف إلى ما يحس منه نكتاً في قلبه أو همساً في سمعه غير آبه بما هنالك من هلجات المتهوسين. فمرحباً بنفسيته الشاعرة وزه بعواطفه الحية. ويزيدنا سروراً ما بلغنا عنه من وعده الأكيد بأنه سوف يزف إلى الملاء لدة هذه القصيدة العصماء في سيد الوصيين أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (ع) ونحن نشكره على ذلك سلفاً، ونستميح قريحته الفياضة في الإسراع بنضد تلك العقود الذهبية، ومن تقديرنا جهوده وصراحته ما نرغب إلى فضيلة صاحب (الرضوان) الأغزر من نشر هذه القصيدة التي هي نسيج وحدها وآية من آيات العربية ناصعة على صفحاتها البيضاء.

لمحرره

محمد رسول الله

كمن الردى في حدِّه للجاني
سُور الهدى، نزلن سحرَ بيان
شهبًا هتكن مدارع البهتان
في أمة مرصوصة البنيان
قبس الهدى، ومطارف العمران
متجسّد من عنصر الإيمان
من نخلة في عرقها صنوان
عزماته، عن خطة العرفان
جارى اليقين يعود بالخذلان
وتقى، وإلهام، وفطر حنان
بطل، للحدث العظيم الشان
فعهم، فينفجرون كالبركان

طبعتك كُفُّ الله سيفَ أمان
العدل قائمه، وفي إفرنده
وعليك أملى الله من آياته
لولا «كتابك» ما رأينا معجزًا
حملت إلى الأقطار من صحرائها
هادٍ يُصوّر لي كأن قوامه
وأراه يغضب للإله موحدًا
لم يزهه «بدر» ولا «أحد» ثنى
فهو اليقين يصارع الدنيا، ومن
وكذا النبوة، حكمة، وتمرد
هي ذلك الروح الذي يتقمّص الأ
تلقى على الأبطال شكتها فتد

وقعة أحد

الهاشمي ومصرع الأوثان
لما تناضل عندَه الحزبان
والشرك يُزجيه أبو سفيان
تلك الصدور جهنّم الأضغان
يحدو الحنينُ بها إلى الأعطان
وتشبُّ عند الكفّ كالثعبان
رقص السراب على بساطِ جمان
كالموج فوق نواهد الكتبان
فجباهم ودروعهم سيان

أحد سبيلُ الله سيناء النبي
ألواحه هبطت سطورًا من دم
يمشي براية «أحمد» حزب الهدى
فَعَلَا فحيح المشركين كأن في
والنيقُ ساهمة تخبُّ هودارًا
والصاهلات تلوك ألجمة الوغى
يمشون، والرمضاء ترقص في الفلا
هرج هو الرعد الأجش، وزحفة
قد غصنت أحقادهم جبهاتهم

دعج العيون، ذكية اللهبان
دكناء صابرة على النيران
واستنجدت، للعار، بالحبشان
رحب الرداء، مشمر الأردن
مخضوبة السبلات بالحنان
مثل الأفاعي حول كل جران
من كل ذي هلب له خفان
وإذا عدوا عُصبا فكالذؤبان
بدفوفهن، وزغردات هجان
ويح الرجال تقاد بالنسوان
فاستقتلوا وهم ذوو نَزوان
أوداجها كزوا خيول رهان
طيار نافرة إلى الغدران

نار الضغائن قد أطلت من كوى
فكأنما في كل عين فحمة
تلکم قریش جمعت أحلافها
من كل موشوم قليل تسربل
بلحى مهذبة الحواشي أطلقت
وذوائب معقوصة ملتفة
متذامرين إلى اللقاء قوافلا
يتنفشون قنافذا مذعورة
ونسأوهم بين الصفوف عوارما
سقن الرجال إلى الضلال فهملجوا
هددّنهم بتفارق إن ينثنوا
عرب إذا ما الجاهلية نفخت
يتسابقون إلى حياض الموت كالأ

* * *

للكاثرين وقام كالصفوان
وجدانه، من ربّه الحنان
فستنجلي عن قدرة الربان
فاضرب بجوؤها العباب القاني
يطوي الوجود بأمره الملوان

دهموا الرسول فما ألان جناحه
متماسك إيمانه، مستوثق
سر يا محمد لا تخف غمراتها
وأمامك الميناء بسام اللمى
«والريح» بين يديك يرسلها الذي

فوز الأبد

مجنونة، وتلاحم الجمعان
من مشرفيات، ومن مران
ورنين أنبلهم عزيف الجان
عزريل، فالصرعى بكل مكان

دارت رحي الهيجا على لهواتها
فكأن عاصفة تحرك غابة
فصليل أسيفهم زيئر مأسد
وكأنما في كل لأمة باسل

جهلوا، وكم تُمسي بلا أثمان
بدم بلاغ الوحي للأكوان
بهما ونال الحق خير ضمان
إلا إذا كُتِبَتْ بأحمرَ قان

ما أرخص الأرواح عند العرب إن
وقضى المهيمن أن يمهر عبده
فثنيتاه مبسم الدين ازدهى
وكذا الرسالة لا يؤيد وحيها

أم عمارة

أنثى تُطاعن أفحل الشجعان
مضت الدهور وأنت نصب عياني
غير الطيوب، ومدمع هتان
تروي ظمأ مجاهد حرّان
ومحمد أمسى بلا أعوان
نفحت به عن سيد الفرسان
منقضة ككواسر العقبان
بالمصطفى، بالله، بالقرآن

لله «أم عمارة» من باسل
لله در أبيك أنصاريّة
هي مجديّة أحمّد، وسلاحها
سلكت سبيل الله تحمل قربة
حتّى إذا ما المسلمون تضععوا
طرحت بقربتها، وسلّت صارمًا
مهتاجة كلبوءة في فجوة
أنثى تذود يشدها إيمانها

أبو دجانة

يختال، كالجني في الميدان
فالفج ينع والقطوف دواني
فلواه فوق مناكب الأقران
وهو على متجبر طعان
دون النبي وأسهم العدوان
في الساعة السوداء، ثبت جنان
حمراء، صانت بيضة الإيمان

«وأبو دجانة» في حسام محمد
بطل الجلال إذا تعصب وانتخى
أخذ الحسام من النبي «بحقه»
كم شك مدرعا، وجندل فارسا
حمّ القضاء، فكان ترسا من دم
وابن اليقين إذا دعوت وجدته
أبا العصاية أخلدتك هنيهة

كَرَّمْتَ سَيْفَ مُحَمَّدٍ وَالْمَوْتَ يَفْتَرُ
أَمَّا «عَتِيقَتِكَ» الَّتِي أَطْلَقْتَهَا
لَاكْتُ كِبُودَ الْمُؤْمِنِينَ تَشْفِيًّا
كَبِدُ الْمَجَاهِدِ «يَا هَنِيْدَةً» مَرَّةً
فَاهُوِي عَلَى دَجْثِ الرِّجَالِ وَمِثْلِي
«يَا خَالِدُ» أَرُوْذُ، فَقَبْلَكَ «بَوَاسُ»
أَفْتَنَصْرُ «الْعَزَى» وَقَدْ بَزَغَ الْهَدَى

شُ الرِّجَالِ، فَعَفْتُ ضَرْبَ غَوَانِي
فَقَدْ اسْتَبَاحْتُ حَرْمَةَ الْفَتِيَانِ
وَعَقُوْدُهَا اتَّخَذْتُ مِنَ الْأَذَانِ
وَالْقَلْبِ مُقْدُوْدٌ مِنَ الصَّوَانِ
بِهِمْ فَيَوْمَكُمُ قَرِيبٌ دَانِي
طَرَقَ الْحَوَارِيَّيْنَ كَالسَّرْحَانِ
مَلَأَ النَّوَظِرَ فِي الْمَصْفِ الثَّانِي؟

فتح مكة

مَاذَا، أَبَا لَهَبٍ، فَمَكَّةُ أَشْرَعَتْ
قَدْ غَمَّكَ «النَّصْرُ الصَّغِيرُ» فَلَوْ تَرَى
انْظُرْ، فَإِنَّ النَّاسَ حَوْلَ مُحَمَّدٍ
قَدْ طَافَ «بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» مَطْهَرًا
«اللَّهُ أَكْبَرُ» دَهَوْرَتْ أَصْنَامُكُمْ
هَذَا «بِلَالُ» يَبْلُغُ النَّبَأَ الْعَظِيمَ
وَمُحَمَّدٌ مَغْضٌ جَلَالًا خَاشِعٌ

أَبْوَابُهَا، لِعَسَاكِرِ الرَّحْمَانِ
«الْفَتْحُ الْكَبِيرُ» لَمْتُ قَبْلَ ثَمَانِي
كَرْبَائِضٍ يَحْدَقُنَ بِالرَّعِيَانِ
وَعَدًا سَيَعْدُوهُ إِلَى الْبِلْدَانِ
فَتَحَطَّطَتْ، أَسْمِعْتُ صَوْتَ أَذَانِ
وَيَطْبَعُ اسْمَ اللَّهِ فِي الْأَذْهَانِ
مَلَأَ النَّفُوسَ جَمَالَهُ الرُّوحَانِي

النبي

إِنَّ النَّبِيَّ إِذَا تَأَمَّلَ مَطَرَقًا
يَبْدُو الْعَتِيدُ أَمَامَهُ مُتَجَسِّدًا
وَتَمُرُّ مِنْ قَدَّامِهِ قَطْعُ الدَّهْوَرِ
فَيَرَى الْوُجُودَ أَمَامَهُ كَمَصُورٍ
مَا لِلتَّخَوُّمِ مَنَاعَةٌ فِي عَرَفِهِ

فُتِحَتْ لَدَيْهِ خَزَائِنُ الْكِتْمَانِ
فَيَمْسُ ظَهَرَ الْغَيْبِ مَسَّ بَنَانِ
كِتَائِبًا، مَعْرُوضَةً لِعَوَانِ
جَمِّ الْخُطُوطِ، مَنَوِّعِ الْأَلْوَانِ
مَلِكُ النَّبِيِّ الْعَالَمِ الْإِنْسَانِي

فإذا مشى هوتِ المعازلُ رُكَّعا
والعبقريَّةُ إن فرى محراثها
هذا «يتيمٌ» صار كافلاً أمةً
نصر من الله العزيز لعبده
وانقضَّ رفرفُها على الأركان
الأرضُ المواتَ تبدَّلتُ بجنان
وأباً لبيضِ الأرض والسودان
يا فاتحَ الدنيا استرخِ بأمان

المعلم البطل

لك في السماء منصَّةً قدسيَّةً
ما كنت سقَّاحاً ولم تسفك دمًا
لو كنتَ في قومٍ تسيغُ عقولهم
لولا اعتداؤهم عليك وجورهم
علَّمتَ «بالقلم» الذي لم يعلموا
قد أخرجوك فأخرجوك، فنلتهم
أسمحتَ، ثم صفحتَ عن آثامهم
والأمنُ في ظلِّ السيوفِ، فإن تَرُمَ
قامت على التوحيد والميزان
إلا بحقِّ العادلِ الديان
وحياً لكنتَ كأودع الحملان
ما خضت حرباً طاعناً بسنان
فأتوك بالخطيِّ والمرَّان
ومذ ارعوا عن ذلك الطغيان
وغمرتهم بالفِيءِ، والإحسان
أمنَّا وعزًّا، فاعتصمَ بيমানِي

روح الإسلام

لله دينك جنَّةٌ مختومةٌ
دين تدفَّقَ حكمةً وتجديدا
ألَّفت منه وحدةً كونيةً
يا من يموت ودرعه مرهونة
لو أدَّتِ الناسُ الزكاةَ، وأنصفوا
يسَّرت للناسِ الشئونَ فأيسروا
وجمعت حولك يا رسولُ صحابةً
من كلِّ فاكهةٍ بها زوجان
كالبحر لفظًا، والسماءِ معاني
العبد والمولى بها ندَّان
قد دست مجد الأصفر الرنان
ما كان في الدنيا فقير عان
أما الهوى فكبحته بعنان
بعمائمٍ أزهى من التيجان

خشنت ملابسهـم، ولان جوارهم
تشقى العدالة في القصور، وأنت قد
أمعـلم التوحيد وحد أمة
فتخالفت جُمعاً وأحاداً وأسماء
قومٌ تقضُّ فراشهم آراؤهم
يتنازعون على السماء وأرضهم
بالعدل، فالأعداء كالإخوان
أسعدتها بمضارب العربان
قد فرقتـها نعة الأديان
فمارونٌ سوى مروان
ومسيحهم ورسولهم أخوان
في قبضة الرواد والحدثان

* * *

فلتنحن الأجيال إجلالاً إذا
المالى الدنيا بذكر الله، والداعي
ولينعق المتعصبون فلم يضر
ذكر النبي الأطهر العدناني
شعوب الأرض للوحدان
طير الجنان تمطّق العربان

(١٤) الصليب

علمٌ عليه من الخلود سناء
شيخ الدهور، فتى الحياة جديدة
رفعوه مهزأة فأصبح راية
حمراء رفّت ساعة، فإذا بها
داودٌ بالمزمار رنّم حولها
وهوى سليمان وهيكـلـه على
قد أخمـدوه فاستحال منارة
يا دوحة ما حاولوا استئصالها
وحنّت على سنن الطريق غصونها
وله على رغم الدهور رواء
أوحى الهدى فتضعضت سيناء
تعنو لها الأملاك والأملأ
للعالمين الراية البيضاء
لحن الخلود وطاف أشعياء
أقدامها، فاهتز أرمياء
عن نورها تتبسّم الأجواء
حتى سمت فامتدت الأفياء
فتفياّت بظلالها الغرباء

* * *

يا ثائراً للحقّ قد أظفرتـه
درعتهم بالحق والإيمان فاتحدوا
فتحوا برايتك الدنى وسلاحهم
بعداته، وجنودك الضعفاء
وساروا والمجنّ رجاء
أقوالك، الأمثال والآراء

قد كان عودَ العار حينَ علوتَهُ فغدا وسامًا دونَهُ العلياء
تلكَ الجراحُ تكَلَّمَتْ أفواهُها بالخالداتِ، فأَيها غرَّاء
ودَمَ الفتى الصديقِ إنَّ يسقِ الصفا نبتتَ عليها جنةٌ غَناء

* * *

يا هازنًا بالظالمينَ ومنذرًا هدمتَ هيكَلهم لتبنيَ هيكلًا
هدمتَهُ وبنيتَهُ بثلاثيةِ هدمتهُ وبنيتهُ بثلاثيةِ
أَمَعْلَمِ الأجيالِ، دينكَ رحمةٌ أمَعْلَمِ الأجيالِ، دينكَ رحمةٌ
يا غالبًا بمماته أعداءُهُ يا غالبًا بمماته أعداءُهُ
فكأنَّ موتكَ يقظةٌ قد بددتَ فكأنَّ موتكَ يقظةٌ قد بددتَ
رفعوكَ في ظلمائِهِم فأحلتها رفعوكَ في ظلمائِهِم فأحلتها
أضمرتَ فوقِ جبالِ صهيونَ لهم أضمرتَ فوقِ جبالِ صهيونَ لهم
فبسطتَ للناسِ اليدينِ مرحبًا فبسطتَ للناسِ اليدينِ مرحبًا
نُصِبَتْ بغياً فوقِ جلجلةِ الهدى نُصِبَتْ بغياً فوقِ جلجلةِ الهدى
صخبوا وضجُّوا هازئينَ سفاهةً صخبوا وضجُّوا هازئينَ سفاهةً
فعلوتَ في أفقِ الخلودِ محلِّقا فعلوتَ في أفقِ الخلودِ محلِّقا
والنسرِ مجثمهُ الذُّرى، ومطارُهُ والنسرِ مجثمهُ الذُّرى، ومطارُهُ
يا رايةً سارتَ بموكبِ عزِّها يا رايةً سارتَ بموكبِ عزِّها
زحفوا بها للفتحِ، والإيمانِ زحفوا بها للفتحِ، والإيمانِ
فتطاييرِ التيجانِ عن هاماتها فتطاييرِ التيجانِ عن هاماتها
في ظلمةِ الديماسِ قد بزغتَ لهم في ظلمةِ الديماسِ قد بزغتَ لهم

* * *

أزعانفَ التاريخِ هذا ثائرٌ أزعانفَ التاريخِ هذا ثائرٌ
قد قدَّسَ القرآنُ مبرزَ شمسِهِ قد قدَّسَ القرآنُ مبرزَ شمسِهِ
هو واحدٌ كالناسِ إنَّ شئتُم، وما هو واحدٌ كالناسِ إنَّ شئتُم، وما
هل عندكم ندٌّ له كي نهتدي هل عندكم ندٌّ له كي نهتدي
أسمى العجائبِ أن يكونَ نظيرنا أسمى العجائبِ أن يكونَ نظيرنا

* * *

العطفُ للمنبوذِ فيه شفاء أَنَّ الحياةَ تَأَلَّفَ وإخاء تمحو فروقًا كُلُّها أخطاء هذا السجودِ وما إليه براء صلواتِهِم، وقلوبهم صمَّاء لغةَ الشفاهِ، ففي الشفاهِ رياء زهْدًا، فهيكَل قدسك البیداء يا للزهادَةِ دونها الإثراء فوق الغمار، ومهدك الأنواء فبدا على الوجهِ الوسيم جفاء فتبدَّد الأضرارُ والأسواء يرجى السلامُ، ولا تني البلواء تعليمك المَدنيَّة الغرثاء	يا فاتحًا للمجدليةِ قلبَهُ أمعِّمًا للسامريةِ، فالورى هاك الهنود تُعيدُ درسك علَّها الناسُ حولك ساجدون وأنتَ من ويتمتمون عليك من أفواههم لغة القلوب أَرَدتَ أنتَ ولم تَرِدْ ما كنت في قلب الهياكل ساجدًا أزريتَ بالدنيا ودستَ نعيمها ولطَّالما قد نمتَ تُسعدُ هانئًا نسجت عناكبنا عليك بيوتها من لي بسوطك ساعةً فأهزَّهُ إن لم يلدك الدهرُ ثانيَّةً فلا فسعادة الدنيا إذا رجعتُ إلى
---	--

* * *

أَسَوَى السقوطِ تقاسمَ الشركاء الخلودِ وصمتها الهيجاء لعلاجِهِ حذَّاقُهُ الأمناء	الغربُ شاركَ في دمايكَ شرقنا إن الشهادةَ في سبيل الحقِ مرقاة والجيلُ إن نخرتُ مبادئهُ انبرى
---	--

* * *

يُتلى فيصغي الدينُ والدنيا مرحًا، وفوقَ النعشِ فيك عزاء رمزًا لطهرَك فوقها الأنداء تُوحى إلى نظري بك الأشياء نورٌ ونارٌ، رقةٌ وإِبَاءٌ	أَمَّا الحياةُ فَأَنتَ بيتُ قصيدها كيفَ التفتُ أراك، في مهدِ الفتى وأراك في زهر الربيع وشوكة كيفَ التفتُ أرى بهاك كأنَّمَا أفأنتَ من كلِّ الوجودِ مرَّكَبٌ
---	---

* * *

وعلى جبينك عَفَّةٌ وحياء	قد لحت لي في عرسِ قانا باسمًا
---------------------------------	--------------------------------------

أُنِّي أَرَاكَ وَحَوْلَكَ الْخُلَطَاءُ
تهفو إليك يَزِينُهَا الإِصْغَاءُ
الدُّنْيَا وَأَيَّنَ مِنَ الْأَنَامِ وَلَاءُ
يبكي، ودمعك ديمَةٌ وطفاءُ
داخِلًا، من حَوْلِكَ الْخُلَصَاءُ
دربِ الصَّليبِ، تَزيِّنُني الأَرْزَاءُ
عَمَّا جَنَّتُهُ الْأُمَّةُ الْعَمِيَاءُ
لِلْعَالَمِينَ، فهل بهم إِصْغَاءُ؟
فَقَضَتْ عَلَيْكَ الطَّغْمَةُ السُّودَاءُ
حَرَّرَتْ شَعْبَكَ، وَالسَّلَاحُ وَفَاءُ
وَالْقَلْبُ لَوْحِكَ، وَالْمَدَادُ دِمَاءُ
وَشَقَّقَتْ بَحَرَ الْجُورِ فَهُوَ رِخَاءُ
فَعَلَى الْجِسْمِ قَمِيصُكَ الْوَضَاءُ
سَادَ السَّلَامُ وَنَامَتِ الْبَغْضَاءُ
رُكْبًا مَخْلَعَةً بِهَا اسْتِرْخَاءُ
النَّاسِ الْغَشَاوَةُ، فَالظَّلَامُ بِلَاءُ
فَهِيَ الْقُبُورُ، وَكُلُّنَا أَشْلَاءُ
إِيمَانِي، أَعِنْدَكَ لِلْعَلِيلِ دَوَاءُ؟

وعلى البحيرةِ قد تَخَيَّلَ ناظِرِي
وشهدتُ مَجْلَسَكَ الْعَفِيفَ وَمَرِيْمَ
ولقد رَأَيْتُكَ فِي «الْعِشَاءِ» تُمَالِحُ
ونظرتُ فِي الْبِسْتَانِ شَخْصَكَ مَائِلًا
وذرفتُ دَمْعَةً ذَاكِرًا لِمَا رَأَيْتُكَ
وقد اقْتَفَيْتُ خُطَاكَ مُتَّبِعًا عَلَى
وَلَدُنْ سَمِعْتُكَ غَافِرًا مُتَغَاضِيًا
قُلْتُ «المُعَلِّمُ» قَامَ يَخْتِمُ دَرَسَهُ
لِلرَّفِيقِ صَيَّرْتَ الذَّبِيحَةَ رَحْمَةً
بِالْعَنْفِ أَنْقَذَ شَعْبَهُ مُوسَى وَقَدْ
أَلَوَّاحُهُ مِنْ صَخْرَةٍ قَدْ قَذَّاهَا
فَجَرَّتْ يَنْبُوعَ الْحَيَاةِ بِلَا عَصَا
وَعَرَكَ أَلْبَسَنَا تُقَى وَهَدَايَةً
فَالنَّاسُ لَوْ عَلِمُوا بِمَا عَلَّمْتَهُ
شَافِي الْمَخْلَعِ نَظْرَةً، أَفَلَا تَرَى
أَمْفَتْحَ الْأَعْمَى أَزَلَ، عَنْ أَعْيُنِ
يَا مُحْيِيَ الْمَوْتَى، إِلَيْكَ بَيُوتُنَا
يَا صَاحِبَ «الْمَلَكُوتِ» قَدْ ضَيَّعْتُ

* * *

الله، كيف يحول الاستهزاء
انْظُرْ، فَمَلِكُكَ هَذِهِ الْغُيْبَاءُ

سُمُوكَ مَلَكًا هَازِئِينَ سَفَاهَةً
الْمَلِكُ يَمْلِكُ أُمَّةً مَحْدُودَةً

(١٥) بردة آل البيت

أنشدت هذه القصيدة جلالة الملك عبد الله في قصره رغدان، فاستعادها وسمعتها واقفاً، وفي الغد أنشدتها جلالة المرحوم والده، فأطلق عليها جلالتة اسم «بردة آل البيت».

آل البيت

لله بيت الدين والقرآن
بيت العروبة والنبوة والهدى
حسب العروبة أن تدل ببيتها
هادي الأنام بنور وحي كتابه
آيات مصحفه مصابيح الهدى
بمحمد القرشي عز الله، والأ
وتصدع الإيوان يوم ظهوره
أخزى الرجيم مبسماً ومهللاً
بسناه نورت المدينة وازدهت
أبدى بفاتحة الكتاب ليعرب
أبني الهدى صلوا عليه وسلّموا
يا سيد الأردن هذا جدك الأ
فافخر ببردته وته فبييتك الد

بيت نما في ظلّه الحسان
والمجد والبركات والإحسان
الزاهي بطأها سيّد الأكوان
ومبدّد الإلحاد والبهتان
وحسامه نارٌ على الطغيان
صنام قد خرّت على الأذقان
وسناه أحمد السّن النيران
ومكبراً فقضى على الأوثان
أم القرى شرفاً على البلدان
فتح الفتوح بمعجز ربّاني
فبذكّره الفتح المبين الداني
على الذي من دونه القمران
دُنيا ودين الله مجتمعان

المنقذ الأكبر

أبّا عليّ والعلي مقامه
يا منقذ الأعراب من بلوائهم
حررتنا ورفعنا عنا نيرهم
ناديت شعبك فاستشاط حماساً

ونضّاله في العرش والميدان
ومشرد الأتراك والألمان
ونشرت حقاً لف في الأكفان
ونذاك كالتأذين في الأذان

أطلقتها سحرًا فثار لصوتها
 إن خلد التاريخ فهو مخلد
 هو فجر مجد خالد أطلعته
 فتدافع العرب الأباة ومن لنا
 غَضِبُوا لهضم حقوقهم فتواثبوا
 قصر الإمارة هل رأيت مليكننا
 هل هاب ذاك الهاشمي قنابلًا
 هل أجفل الأشبال يوم تطاردوا
 إن ينزلوا كانوا الليوث على الثرى
 فعليُّ البطل الجسور رأى الورى
 واستل ربك فيصلاً فمحا به
 والطائف ارتاعت لوطء خيول
 وانقض زيد الخيل يخفت صوت
 فأعاد يوم القادسية نفسه
 وإذا الشريف على سرير الملك
 بيديه شيد عرشه العالي الذُرى
 والله لولا غضبة مضرية
 ما أدرك العربي لاستقلاله
 لم يفلح الحلفاء لو لم يستمت
 بيت الحسين أعدت عهدًا طيبًا
 أعظم به بيتًا يحرر أمة
 يا ابن الملوك أبا الملوك مقلد
 إن يبن من قبل الجدود فخارنا
 عش للعروبة رافعًا أعلامها
 فستحفظ الأجيال ذكرك خالدًا

أهلُ الحجاز وكَبَّرَ الحرمان
 تسعًا خلت للحرب من شُعْبَان^٦
 يا ابن الإمام على بني عدنان
 كالعرب يوم كرية وطعان
 أُسْدًا أظافرها شَبَا المُرَان
 يرتاع يوم تساقط الجُدران
 تنهل مثل العارض الهتان
 والغاشمين وأطبق الجيشان
 أو يركبوا انقضوا كما العقبان
 فيه عليًا سيد الفرسان
 ما خطه الأعداء من عُدوان
 عبد الله لابسة دم الشجعان
 أجياد ويهدم أوطد الأركان
 والنصر حالف عسكر الرِّحمان
 والأعراب أحرار ذوو سلطان
 شرفًا وقد حياه أسطولان
 للدين والشهداء والأوطان
 معنى وظل يقاد بالأرسان
 يوم القتال أشاوس العُربان
 للبيت ردد ذكره الملوان
 وينيلها مجدًا رفيع الشان
 العربي سِلْسلة من العِرفان
 فلأنت أنت مجدد البُنَيان
 يا من يقر بفضلهِ الثقلان
 وتظل مذكورًا بكل لسان

^٦ في هذا التاريخ من سنة ١٢٣٤ أطلق جلالتَه بندقيته إعلانًا للحرب.

والحكم للتاريخ فهو ينصه
رأي الدهور بشيخٍ يعرّب واحد
وعليه فعلك أصدق البرهان
لا اثنان، والسلطان ذو عدوان

عبد الله بن الحسين

يا واردةً عمان حي أميرها
سلم بتسليم الملوك على الفتى
لم يزّه بالعرش الرفيع كما زها
ملك يريك فؤاده بجبينه
يزدان بالحلم الجميل كأنه
وإذا دعا داعي النزال فعزمه
يا صاحب الأردن قد ضارعته
إن خلدوه بذكر عيسى أدهراً
أمجداً عهد القريض ورافعاً
أحييت أشرف حلة عربية
ذكرت هذا القطر حين ملكته
أنسيتهم عهد الذين تقدّموا
فاسمع أناشيد القريض فإنّها
وانشُر على الدنيا مفاخر أمة
عش يا أميراً دونهُ النُّعمان
فنعيمه في أي يوم جئته
أحيا الشرائع يستكين لعدلها
وبأرضه الإنجيل يلثم مصحفاً
ما أجمل الملك الذي في شرعه
لو شاء ربُّك وحدة دينية

واقرا السلام على ذرى رعدان
سبط الرسول معزز الإيمان
ملكٌ سواه بسورة السلطان
وبه النهى والنبل يلتقيان
إرثٌ عن الحسن الأب الفتان
أمضى من الهندي في الأقران
بالطهر والبركات والفيضان
فله بعبد الله ذكر ثان
للشعر والشعراء خير مكان
وفتحت باب البيت للركبان
أيّام سيف الدولة الحمّاني
من حارث البلقاء والنُّعمان
تحكي رنين ماثل ومثاني
أخنت على كسرى أنوشروان
مكرمة وما لوفوده يومان
ويقيق شر طوارق الحدثان
المسلم الحنفي والنّصراني
وهلالها يحنو على الصُّلبان
الدين القويم محبة الإنسان
ما كان قط تعدد الأديان

* * *

كم في الأنام من الذين يَلذُّهم
فاقطع لسان الناعقين ورد
إن يفخروا بالسيف كنت أميره
أو يذكروا مجد الجدود فمن له
فليخرصوا طرًّا فكم من شاعر
مولاي عفوًّا إن يقصر شاعر
فهو الذي يروي صحيح حديثه
أرضعت حبي أمتي حتى غدا
وبه أرى ديني العُروبة والكنيسة
ورضاك حسبي يا أمير فجد به

نعق على الأوطان كالغربان
كيد الحاسدين وعش قرير جنان
وعليه في الجلى شهود عيان
كأبي طلال في الورى جَدان
يروى حديث الروح عن حسان
عن وصف بدر باهر اللمعان
عنكم وليس به غلو بيان
جزءًا يتمم وحدتي وكياني
موطني ودمي له قرباني
واقبل سلام الأرز من لبنان

إثارة لا رثاء

شاهد النهضة

لا تحتاج هذه القصيدة إلى ذكر ما دعاني إلى نظمها فهو معلوم من كل عربي وأنا واحد من هؤلاء.

مَاتَ الْحُسَيْنُ فَرُوعَ الْإِسْلَامُ	فعلَى العروبة والحسين سلامُ
قُلْ للسياسة جاهري لا تستحي	مات «الصريح» فما عليك ملام
مات الحسين فيا أعاربُ كَبُرُوا	إن العميد عن الشئون ينام
نَمْ آمَنًا يا ابن الثمانين الذي	لم يعرُهُ في الحاليتين سَام
أبَا العروبة، والتراث مقسَّم	شمسُ السياسة ما لهن زمام
ما «للوثائق» قيمة في عرفها	إن النكيثة عندها لذمام
أو ما رأيتَ عهودَهم منقوضة	فالكذب حلٌّ والوفاء حرام

* * *

يا هوله نبأ أثار شجوننا	ريع العراقُ له وضجَّ الشام
وارتجتِ الأردن من فرط الأسى	وبكى الحجاز وأنتِ الأهرام
نبكي علينا لا عليك فإنما	ماتت بموت «المنقذ» الأحلام
قد فرّقت أيدي المطاعم وحدةً	أوجدتها وتخاذل الأقسام
أضحيةً استقللنا لا تقنطي	من رحمة، فسيعلم الظلام
كنتِ الشجا في حلق سُوّاس الورى	ذهب الشجا فتسهّل الإبرام

أَسِيرَ قَبْرَسَ لَا تُرَعَ لَكَ أَسْوَةٌ
أَيُّعَابُ سَيْفٌ إِنْ تَتَلَّمَّ حُدُّهُ
هُوْنٌ عَلَيْكَ، فَمَا عَلَيْهِ غَضَاظَةٌ
مَا هَانَ قَطُّ وَلَنْ يَهُونَ اسْمُ تَقْدُ
مَا هَانَ مِنْ ضَحَى بَعْزَةِ عَرْشِهِ
سَعْدًا لِقَبْرَسَ قَدْ تَخَلَّدَ ذِكْرُهَا
لِلَّهِ عَهْدُكَ كَمْ تَذَكَّرْنَا بِهِ
يَا عَاهِلَ الْعَرَبِ الَّذِي تَارِيخُهُ
فَرَّجَتْ كَرْبَتَنَا وَمَتَّ بِكَرْبَةٍ

فَأَسِيرَ «سَنْتِيلِينَ» لَيْسَ يِلَامُ
يَوْمَ الْقِرَاعِ وَمَا جَنَاهُ الْهَامُ؟
إِنْ لَمْ يَمِتْ بِعَرِينِهِ الضَّرْغَامُ
يَسَهُ نَصَارَى الشَّرْقِ وَالْإِسْلَامِ
إِنْ جَرَحُوهُ فَجَرَحَهُ يِلْتَامُ
بِاسْمِ الْحُسَيْنِ تَرُدُّهُ الْأَيَّامُ
مَجْدَ الْعَرُوبَةِ، وَالزَّمَانَ غِلَامُ
فِي صَفْحَتَيْهِ عَدَالَةٌ وَوِثَامُ
عَمِيَاءُ يَعْلَمُ هَوْلَهَا الْعَلَامُ

* * *

يَا سَاكِنَ «الْأَقْصَى» يَشْرُدُهُ عَنْ
سَبْحَانَ مَنْ أُسْرِى إِلَيْهِ بَعْبَدُهُ

الْبَيْتِ الْحَرَامِ مِنَ الْخُطُوبِ جَسَامُ
فَسَرْتُ إِلَيْهِ بَابِنِهِ الْأَنَامُ

* * *

يَا بَاعَثَ الْمَجْدَ الْقَدِيمَ وَدُونَ نَهْضَتِهِ
يَا فَيَصِلَ الْإِسْلَامَ فِي تَارِيخِنَا
«وَبِرْغَمِ أَنْفِي إِنْ أَرَاكَ مُوسِدًا
«بِي لَا بَغْيِيرِي تَرْبَةً مَجْفُوءَةً
يَا أَيُّهَا التَّارِيخُ هَذَا خَالِدُ
قَلِّ لِلَّذِي لَمْ يَذَرِ أَقْدَارَ الْوَرَى

الرَّشِيدَ وَخَالِدَ وَهَشَامَ
مَهْلًا فَيَذْكُرُ حَدَّكَ اللَّوَامَ
يَدَ هَالِكٍ وَالشَّامِتُونَ قِيَامَ
لَكَ فِي ثَرَاهَا رِمَةً وَعِظَامَ
يَطْوِي فَتَنْشُرُ مَجْدَهُ الْأَقْلَامُ
هَذَا زَعِيمُ الْأُمَّةِ الْمِقْدَامُ

* * *

يَا قَبْرَ مُنْقِذِنَا، وَإِنْ قَلَّ الْوَفَا

صَبْرًا فَتَخَفِقَ فَوْقَكَ الْأَعْلَامُ

دَمْعَةُ الْأَرْز

عزم المجاهد الأكبر أمين الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، على إحياء ذكرى الملك حسين بن علي الذي دفن في المسجد الأقصى، فدعا شعراء الأقطار العربية فكنت من المدعوين فأعددت هذه القصيدة التي كان لها أثر في النفوس.

وقد وثقت هذه القصيدة عروة المعرفة بيني وبين المفتي الأكبر لما لها من علاقة بالقضية الصهيونية التي كنا نقاومها قبل الحرب العظمى ونسميها «الخطر الأصفر». ثم ازدادت هذه المعرفة نموًا فيما بعد، حين فرَّ سماحته إلى لبنان قبل هذه الحرب، وأقام على مقربةٍ من جونه، فكان بيني وبينه مداولة حول القضية التي تهم كل عربي. وما زلت أحفظ بين أوراقِي رسالة من سماحته حول الموضوع.

فإذا رأيت أيها القارئ العزيز في قصيدتي تأثراً فلا تتعجب، فقد تشرفت بتقبيل راحة الحسين، في ذلك العام، فذكرت قول الفرزدق في أحد جوده: يغضي حياءً ويغضي من مهابته.

ولست أنسى — ما عشت — دمعة فرَّت من عيني عندما روى لي حكاية خادمه الذي حاول أن يودِّعه في العقبة، ساعة مشى إلى قبرص، فزجره قائلاً له: لا تودعني، يا ولدي، لئلا يقال: إنه كان في وداعي واحد من العرب.

لِيُغَمَدَ «ذو الفقار» فقد حَمَاهَا	وأَقْصَتُهُ «السياسة» عن حَمَاهَا
«فيا شبه الجزيرة» أَيْنَ مولا	لِ «ابن البيت» أَسْمَى العرب جَاهَا
«ويا أُمَّ الْقُرَى» ماذا قرِيت	«الضيوف» وأَيْنَ من فيه يُبَاهَى
«أكعبة» أين أعلى الناس كعبًا	إذا ما عَدَّت الدنيا علاها
«ويا بطحاء» أَيْنَ «أبو علي»	أَبُو الهيجاء إن دارت رحاها
أسأَلُهَا وقد عِيَتْ جوابًا	فويحُ لابنةٍ عَقَّتْ أَبَاهَا

* * *

فتى «عدنان» نم نومًا هنيئًا	فأُمَّتَكَ استفاقت من كراها
وإن نامت على ضيمٍ قليلًا	فذاك رماؤها يُخفي لظاها
وإن الثأرَ عند العرب دينٌ	ومن يكفرُ به جحد الإلهَا
فما جئناكَ من لبنانَ حتى	نردّدَ كالنساءِ عليك آها

لقد جئنا وفي الأحشا سعيْرُ
أَتَيْنَا كَيْ نَهِيْبَ بِكُلِّ سَاهِ
ولا عجب إن الأحلام طاشتْ
نزِيل القدس سرَّ وقرَّ عَيْنًا
فإن عزَّت «بجدك» حين أُسرى
وإن تَكُ «ثالث الحرمين» دينًا
وهذي «الصخرة» الغراءُ أزهت
لأنَّكَ صخرة بُنِيَتْ عليها
فقبرك صارَ منذ اليوم «حجًّا»
تطوفُ به القبائلُ محرماتٍ
وكم ميت به تحيا شعوبُ

يُذِيبُ الأرضُ إن يلمس حَصَاهَا
عَنِ الأرضِ التي بِدَمٍ شَرَاهَا
فإنَّا أُمَّةٌ قَتَلُوا فَتَاهَا
«فَأُولَى القِبْلَتَيْنِ» علت ذراها
فقد شرفت بدفنك في ثراها
ففي وطنيتي غدت ابتداهَا
بقربك واكتستُ شرفًا تناهى
قَضِيَّةُ أُمَّةٍ أَهْوَى بناها
نُعْفَرُ فوق تربته الجباهَا
«فَمَرَوْتَهَا» هُنَا وهنَا «صَفَاهَا»
وكم «حيٌّ» يموت به رجاها

* * *

أُمَّةٌ يَعْربُ مرجى فهذي
وحطَّم تاجُهُ عطفًا عليها
فقام «المسجدُ الأقصى» بعطفٍ

فلسطين تقدُّسُ من هواها
وأزرى بالأريكةِ وازدراها
يَضُمُّ يَدًا عليه همى سخاها

* * *

فقيد الأُمَّتَيْنِ عليك منا
أَقِمْ بجوار عيسى مطمئنًا
أمير المؤمنين أهبْ بقوم
وخاطبْ من ضريحك من توانوا
بنيت لكم بناءً مشمخرًا
وذودوا عن مواطنكم ليوثًا
فدفني ها هنا قدرُ لكِما
فلن تغتَرَّ إن شامت بروقًا
عهود «القوم» منقصةٌ وغش
فأمس هنا على عيسى تعدُّوا

المراحمُ هاطلات من سماها
فقد أنقذت أُمَّةً افتداهَا
رفعت لهم مقامًا لا يُضَاهَى
وقل لهم: إلى الهدفِ اتجاها
ألا اتحدوا قلوبًا لا شفاها
تخيف القومَ إن قربوا شَراها
أوثقَ أُمَّةً فُكَّتْ عراها
فكم خدعت عيونًا سيميهاها
فيا بئس العهودُ ولا رعاها
وقاموا اليومَ يَهْتَضِمُونَ طَاهَا

* * *

«أمنقذ يعرب» لبَّيك، أبشر
صليب «مسيحها» سيحول سيفًا
إذا «الزيتون» هَسَّ بأرض يَسَى
وهبَّ «النخل» يجرد من ذراه
فقبرك يا حسينُ لسانُ صدق
ومن جعل الفصاحة في قريش
ومثلك خالدُ ببنيه يُعلي
سريت مع السياسة ذا وفاء
فتلك «البندقيَّةُ» من تُراه

* * *

هنا حولَ الضريح — غداً — ترانا
سنطلقها — غداً — طلاقات ثأر
ونمشيها خطى كُتِبَتْ علينا
ليوثًا للوغى عقدت لواها
هنا فترجعُ الدنيا صداها
ومن كُتِبَتْ عليه خطى مشاها

١٩٣١

صاحب النبي

أنا ممن يثقون بالأدب الجبراني، وقد ناضلت دونه، ولهذا رثيت صاحبه.

قيثارة الروح إن الموت أشجاني
وأسمعيني نشيدًا كان يطربني
ترنمي أيها الأرواح وابتهجي
إن قال في الأرض جزءًا من قصائده
مات الذي هبط الوحي الحديث على
مات الذي مثَّلت للكون ريشته
مات الذي يتمشَّى في «مواكبه»
بدت «عرائسُه بين المروج» لها

فشنَّفني بنشيد الخلد آذاني
كأنَّه النَّايُّ من إنشادِ «جبران»
فتاك كَسَّرَ قيد العالم الفاني
فسوف ينجزها في العالم الثاني
يراعه فأرانا «وردة الهاني»
مشاهد الكون شتَّى ذات ألوان
حب الطبيعة — عفواً — مشي ولهان
نحيبٌ مسترحم أو نوح حيران

على النواميس أخزى كل شيطان
 قد حار فيها ذوو عقل وأذهان
 نصر الحقيقة في حكم وبرهان
 وفي «العواصف» عرف الذئد والبان
 «نبيُّه» «يسوعُ ابنُ إنسان»
 تطهَّر الكفر من رجسٍ وأدران
 عقل، ويسخر منها سخر فنان
 مرت كطيفٍ على أجفان وسان
 فأطربت كلَّ ذي سمعٍ ووجدان
 رض» التي حملت عبَّاد أوثان
 تعلَّم بأنَّ أناسَ «غير طرشان»
 بها يفاخر هذا المشرق الداني
 حتى بدا لك في الدنيا جناحان
 فالورد يبسم للدنيا بنيسان
 ومث جدَّ كئيبٍ نضو أحزان
 تناصر القلب، وثابًا على الجاني
 بها يفوه الحيارى بين مجَّان
 «مزمارة داود» «والشعر السليمانى»
 في أُمِّ شأنها تأليه رنان
 حبٍّ ومات غريب الدار والشان
 هنَّئَت يا صاحبي نَمَ نومة الهاني
 ما حُلِّدَ الأرُّر في أطواد لبنان

وقام يخلق «أرواحًا تمردها»
 أرى البرية في «مجنونه» عبرًا
 وكان في «السابق» السَّبَّاق رائده
 «فرمله» درر، أصدافها «زبد»
 جبران جبَّار هذا الجيل آيته
 كم في «ابتسامته من دمة» خفيت
 مستهزئٍ بقيودٍ ليس يقبلها
 وليس يشبه عندي غير عاصفة
 جبران كنَّارة أنغامها اتَّسعت
 وكان آخر ما غنَّته «آلهة الأ»
 جبران أسمعتنا اللحن الغريب فقم
 أرى «رسومك» وهي العين خالدة
 ما كسَّر الدهر يا جبران «أجنحة»
 يا وردة الشرق ما هذا الذبول أجَبْ
 ويا أنيس الليالي، عشتَ في حزن
 قلَّدت يسوعَ في التعليم متبعًا
 وما خيالك في عرفي سوى لغة
 يا إرميا قمَّ ورَّحِب بالزميل على
 أحياءكم بعدَ آلاف السنين لنا
 أحبَّ لبنان حبًّا لا يماثله
 لا تندبوه فإنَّ النوحَ يزعجه
 نَمَ عن همومك فالآثار خالدة

البطرك الحوبك

عرفت هذا البطرك حق المعرفة، وقد كان تارة يغضب علي وحيناً يرضى، ولي معه وفيه قصص طويلة سآدونها في كتابي «قصصي وأخباري».

فانعوا إلى المشرقين السيد العلما
الدنيا وأجمل وآس الدين وابكهما
هيهات في الشرق بطريق يضمكما
والتاج أهوى وثلّ العرش وانحطما
ما بعد اليأس حي يحبس الديما
برّ حكيم جسور مخلص لهما
ألصادق القول أما يكذب الزعما
من عاش في ظلّه بالله معتصما
فذاً ولا طائفياً يمقت القسما
وفي النوادي حكيم يفحم الفهما
كأنها العقد فيه نظم الأممَا
كذا الرعاة وإلا فالرعاة لما
ولم يكونوا لكيما يأكلوا الغنما
بيتاً من الصمّ هار البيت وانثلمَا
شكا نوائبها كثراً وما سيئما
من جسمه هامداً أن يغنموا همما
تنعى على القوم هضم الحقّ والظلما
قد كان أرسخ من لبنانه قدما

إن الذي شاد «لبناناً» قد انهدمَا
يا ناعي «الحيّ» للأموات عزّ به
تعزّ يا دين، يا دنيا اجملّي جزعاً
تفارقا، فعصا موسى قد انكسرت
فإن منينا «بطوفان» فلا عجب
فانعوا إلى «الملّتين» اليوم خير أب
وانعوا إلى شعب لبنان زعيمهم
وانعوا إلى «الأرز» مولاه وحاميه
إلى الطوائف انعوا رأس طائفة
ففي الكنيسة كان البطريك تقي
راع مصل لباريه وسبحته
ما كان يبغي سوى توحيد أمّته
كان الرعاة لكي يحموا خرافهم
مات ابن تسعين والتسعون إن وطئت
تسعون عامّاً تقضّت في الجهاد وما
فادعوا الشباب إلى «شيخ الجبال» عسى
إن يهتضم فسياسيّ جرائته
وفي عقيدته والحقّ مطلبه

* * *

دينًا ودنيا خلاك الذمّ حين طمى
الأحرار في كلّ طور، يافعًا هرما
عنا بأنّا الألى لا نخفر الذمّما
ضادية أدبًا بل منطقيًا وفما

يا واحد الجيل بل يا جيل مفخرة
إن كان في الناس أحرار فأنت أبو
يا آية العرب يوحى خلقه سورًا
أنشأت «عائلة» شريقيّة خلّقًا

فصنت للشرق من عاداته غرراً
نشأت صباً بالاستقلال من صغر
وعشت ما عشت فينا راعياً بطلاً
— فمجد لبنان قد أعطيت — أجمعه
يا عنصراً لم يذب في الغرب ملتئماً
ومتّ حرّاً يرى استقلاله حرماً
حقّيه صان ولم يسمح بمسّهما
يا ليت به هذا المجد ما اختتما

* * *

إن لم أمدحك حيّاً يا عظيم فمن
فحين أصبحت لا تؤتي لمنفعة
ورحت ألثم كفاً ما انتضت قضباً
فيا له مأتماً في الشرق ما شهد
أخرجت فاستولت الرهبي فما نسبوا
ولحت تحملك الأحبار خاشعة
فما تناولت الأبصار بل خشعت
كأنّ نعشك والأنام مغضية
كره التزلّف للسادات والعظما
دانيتُ قصرَك أبكي الطهر والشمما
للذود لكن صليب الحقّ والقلمما
التاريخ أعظم منه مجمّعاً فخماً
والأسد ترهب موتي، فاتقوا الأجما
يا من تحملت عنّا الهمّ والألما
تكاد تقذف من فوّهاتها الجِمْما
«تابوت ذا العهد» لم تضرب له خيما

* * *

يا شائب الرأس شيبّت الزمان وما
يا أمة أدرجت ذا اليوم في كفن
شابت أمانيك، فارقد بالسلام كما
وصي بقاياك حتّى تحرس العلما

الملك فيصل

أعجبني من الملك فيصل أله المكتوم، ولا سيما حين سمعته يردد بتألم ممض الأبيات
الأولى من: لا افتخار إلا لمن لا يضام، حتى إذا بلغ هذا البيت:

واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيه غذاءُ تضوى به الأجسامُ

شدّ على كل كلمة ليدرك سامعه فعل هذا البيت فيه. فقلت في رثائه هذه الأبيات
إرضاء لعاطفتي وتقديراً للعربي العظيم.

سألت الأفق عنه فقال: أودى
وسألت النجوم فقلن: كنا
وسألت العروبة، أين حامي
فصاحت لوعة: وا فيصلا!
فما مات الذي في كل جسم
فيا ويح «القضية» كيف تبكي
فهذا البيت أوجدها قديماً
فيا بيت الشهادة والضحايا
يهنّد فيصلاً فيشب ناراً
فتى ضاقت عليه الأرض جدّاً
نراه، وقد جفا عنا وصداً
نمارك، سيّد العرب المفدى
فقلت لها اقصري نوْحاً وعدّاً
تقمّص روحه روحاً أشدّاً
ويُخرج بيئتها الفيّاض أسداً
والبسّها جديداً المجد برداً
سلمت لنا على الأيام زنداً
تُضيء، ويحصد الأعناق حصداً

* * *

أبا غازي ألفت الفتح حتّى
وجاورت الصواعق في الأعالي
أيطلب منك ذو طبّ هدوا
اقتحمت الجوّ مغواراً أشدّاً
لكي تنقّص في الأذان رعداً
فيا قلب العروبة كيف تهذّا؟

* * *

شقيق علي وعبد الله، بشراً
هجمتم كالقضاء ولا مردّ
مربع أمّة راس، سمّاه
يجير البيت أفراداً وهذا
أخا زيد إذا الدهر استبدّاً
وكم صاولتم أخذاً وردّاً
الحسين، فكان هذا الحصن فرداً
أجار العرب والمجد استردا

* * *

ركبت من السياسة شرّ بحر
أخا الخمسين، إن التاج عبء
فحسبك ما بنيت فقر عينا
تداور يَمّه جزراً ومداً
متاعبه تهذّ الجسم هداً
فقد شيّدت ملكاً لن يهدّا

* * *

أراك تجلّ عن نوح القوافي
ومن يرث البطولة فهو فان
أنندب «فاتحاً» عشق العوالي
فمجدك يُنشدّ الأشعار نشداً
أليس النعش للأبطال مهذاً
وخلف «غازياً» إن صال أردي

اللوعة الخرساء

لا تحتاج هذه القصيدة إلى تعريف، فهي في ثلاثة هم أعزُّ الناس عندي: أبي وأمي وأمَّ أولادي.

قومي انظري الأطيار كيف تالَّبتْ زمراً زمر
في هيكَل الوادي الرهيب تُقيمُ تسبحةَ السحر
خلع الأميرُ على بنات الأرض أثواب الزهر
فالكون في عرس الصباح وحمك محزون مباح
قومي فقد جاء الربيع
كيفَ التقاعدُ، أيُّها الأمُّ المولَّهة الحنون
أختاه، طالَ النومُ، والأولادُ ضجُّوا صاخبين
قُومِي إلَى حاجاتهم فببَعْضِ عطفِكَ يَفْنَعُونَ
شُلَّتْ يمينك يا قدر اطهو الحصي ولا «عمر»
والنَّاس حولي كالربيع
يا وأختي، والوهج موصولٌ بأسباب السماء
يا قَرَيْتِي، أغشاك أن ينسدَّ في وَجْهي الفضاء
يا مَنْزِلِي، بِكَ سلوتي، إن يجفَّ إخوانُ الصفاء
من للسفينِ بلا شَرَّاعٍ — والبيت — والمصباح ضاع
والعامُ إن مات الربيع
ماذا دهمي أختَ الصباح وكيف تاهتُ في الظَّلَامِ
كيفَ امحى قوسُ السحاب وذاب في قَلْبِ الجهام
في ذمَّةِ الأرياح طرته وفي عُنُقِ الغمام
يا عَشْر، رفقا بالفراخِ فالمقبلونَ على الصراخ
هَجَرُوا الخميْلَةَ في الربيع
إن يرجعوا صفتِ الحياة وجدَّ دهري وابتسم
واخضرتِ الأرض الموت وأعشبَ الصخر الأصم
هيهات، ذاك العهد كان وراحَ والفُلك ارتطم

الشمس في سمتِ الأصيل وأنا المحير في السبيل
وأظنُّ أنِّي في الربيع
ذكراك كالحمى تُعاودني ومثل العاصفه
مثل البراعم ليس تُوقظها الرُّعود القاصفه
وتحسُّ هينمة الربيع فتستفيق العاطفه
إن المحبة لا تموت وهي الفصيحة في السكوت،
فكأنَّها زهر الربيع
كم رنَّ في أذني فأرعد مهجتي وقع الخطي
مُتدافعاً فوق البلاط كأنَّه مشي القطا
كم عن لي رفُّ الصبايا الراجعات من «الوطا»
فظننتها بين النساء أوَّاه من خدع المساء
وما اذكارات الربيع
كيف التفتُّ فلا أرى عن جانبي سوى كهوف
تبدي الحديث مكبراً وتظلُّ عن شأني وقوف
ذهب «المعزي» في السرى وبقيت وحدي كالعريف
في مهمه مدَّ البصر يحتار فيه من عبر
وتضلُّ أطيَّار الربيع
يا من غدوت أباً وأمًّا هذه سنن الحياة
من كان يحمل كلَّ همِّك مات بل أمسى رفات
وبقيت وحدك لا تهمُّ بلفظة ذهب الثقة
فاصبر على عبث الصغار واندب «ثلاثتك» الكبار
من آثروا سفر الربيع
لا أستعير من الدجى ثوباً ولو مات الزمان
سيان في نظري خطي متنطس أو بهلوان
صور تمثلها الحياة ليستبدَّ بها الكيان
ما لي أخاف من العدم وهو البريء من الألم
وعلام أنتظر الربيع

فِي سَبِيلِ الْإِخَاءِ

(١) توحيد واتحاد

إِنْ يَبْغُ تَفْرِيقَ الشُّعُوبِ دُعَاتُهُ
جَسَمًا تُوَحِّدُ فِيهِ جُزْئِيَّاتُهُ
وَطَرَائِقُ فَتَبَدَّلَتْ آيَاتُهُ
فَعَدَا حَسَامًا لَا تَكُلُ شَبَاتُهُ
حَتَّى تَضِلَّ عَنِ الصِّرَاطِ هُدَاتُهُ
قَدْ رُوِدِفَتْ وَتَعَدَدَتْ لَفْظَاتُهُ
لَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَذْهَبِي جَنَاتُهُ
عَنْ غَايَةٍ وَإِلَهُ كُلِّ ذَاتُهُ
مِنْهُ وَمِثْلُ الْفِعْلِ مِشْتَقَاتُهُ
رَبُّ الْجَمِيعِ، وَفِي الْجَمِيعِ صِفَاتُهُ
فِيهِ الْحَيَاةُ وَنَاسُهُ ذَرَائَتُهُ
لَيْسَتْ تَعُدُّ وَلَا تَرَى صَفَحَاتُهُ
مَسْبُوكَةٌ وَنَجْوَمُهُ حَرَكَاتُهُ
وَيَحِ الْقَطِيعُ مَتَى تَضِلُّ رِعَاتُهُ
فِي شَرْقِنَا كَيْلَا تَمَرَّ حُقَاتُهُ
يَبْغِي النِّعِيمَ، وَفِي الْجَحِيمِ حَيَاتُهُ
بِالْتَّرَهَاتِ فَتِيَهُ وَفَتَاتُهُ

لَا الدِّينُ يُرْضِيَنِي وَلَا صَلَوَاتُهُ
فَالدِّينُ مَسْنُونٌ لِتَأْلِيفِ الْوَرَى
ضَلَّ الْأَلَى جَعَلُوهُ قَيْدَ مَذَاهِبِ
قَدْ كَانَ فِي فَجْرِ التَّمَدُّنِ مَبْضَعًا
وَلَسَوْفَ يَبْقَى هَادِيًا هَذَا الْوَرَى
وَالدِّينُ فِي لُغَةِ التَّطَوُّرِ وَاحِدٌ
وَأَرَى الْمِثْلُثَ كَالْمَوْحِدِ دِينُهُ
لَيْسَ الْكِتَابُ سِوَى الضَّمِيرِ مَنْزَهَا
ذَاتِي هِيَ الرَّبُّ الْعَظِيمُ لِأَنَّهَا
وَإِلَهُ مُوسَى وَالْمَسِيحِ وَأَحْمَدِ
وَالْكُونُ جِسْمٌ سَرْمَدِيٌّ خُلِدَتْ
وَالْأَفَقُ عِنْدِي صَفْحَةٌ مِنْ مَصْحَفِ
إِنَّ الْكَوَاكِبَ وَالشُّمُوسَ حُرُوفُهُ
وَرِثَ الْمَذَاهِبُ كَالْعَقَارِ مَضِلًّا
بَذَرُوا «اجْتِهَادَهُمْ» فَأَنْبَتَ شَوْكُهُ
فَتَنَازَعَ الْمَلَكُوتَ شَعْبٌ تَاعَسَ
لَهْفِي عَلَى الْوَطَنِ الْعَزِيزِ مَقِيدًا

أَسْفِي عَلَى وَطَنٍ تَفَرَّقَ شَمْلُهُ فِي الدِّينِ فَاِبْتَسَمْتُ لِذَاكَ عُدَاتُهُ
هُمْ يَذْكُرُونَ الْحَبَّ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَلَدِينِهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ نُعْرَاتُهُ
فَإِذَا غَدَا دِينَ الْإِخَاءِ شَعَارُنَا حَيَّ الرِّقْيَ وَقُلْ دَنْتُ أَوْقَاتُهُ
فِيهِ نَرَى بَيْتَ الْعَرُوبَةِ مَقْدَسًا حَرَمًا تَصَافَحَ طُورُهُ عِرْفَاتُهُ

* * *

وَطَنِي الْمَرِيضُ أَمِنْ دَوَاءٍ نَاجِعٍ غَيْرِ الرُّقْيِ فَبِلَاؤُهُ رَقِيَّاتُهُ
حُلُوهُ مِنْ هَذِي الْقَيُودِ وَحَطْمُومًا أَغْلَالُهُ، أَفَلَمْ يَكُنْ إِفْلَاتُهُ
مَنْ لِي بِيَوْمٍ إِنْ تَمَآيَلْ أَرْزُهُ فِيهِ تَمَآوَجَ نِيلُهُ وَفِرَاتُهُ

* * *

وَطَنَ الْأَعَارِبِ حَسَبَ قَوْمِكَ رَقْدَةٌ فَهُمْ إِذَا ذُكِرَ الذَّمَارُ حُمَاتُهُ
يَا وَيْلَ شَعْبِ الشَّرْقِ مِنْ زَعَمَائِهِ إِنْ قُلْتَ هَشَّ تَصَعَّدَتْ زَفْرَاتُهُ

١٩٢٥

(٢) بيني وبين الأسير

في فترة قصيرة جداً صرْتُ من فرسان الصليب الوردِي، فتقت إلى «الأسرار» التي تلي هذه الدرجة «١٨» فكتبت إلى الأخ الدكتور حسن بك الأسير — رحمه الله — أسأله ذلك، وأحببت أن يكون الخطاب نظماً لأنني كنت — في ذلك الزمان — مولعاً بالنظم. فجاء الجواب منه شعراً أيضاً. وها أنا أنشر الاثنين لأنني أحببت أيها القارئ الحبيب، أن أعترف لك اعترافاً صادقاً، فلم أترك شاردة ولا واردة. أحببت أن أريك مارون عبود، في كل مراحل حياته، وأطواره التفكيرية والنفسية، ولك أن تقول أنت في ذاك المارون ما شئت. فأنا أعتبره ذاتاً تركتني لتحل محلها ذات أخرى. إنني أحس ذلك وألمسه. أجل، لقد تركت على طريقي ذواتاً كثيرة فتأمل نفسك أنت إذا شئت أن تشعر شعوري. ومن يدري فلعلك تركت مثلي ذواتاً كثيرة.

الخطاب

إِلَى «حَسَن» النَّهْيُ الْمَفْضَالِ سِيرِي
أَسِيرَ الْفَضْلِ رِفْقًا بِالْأَسِيرِ
أَلَا افْتَحْ بَابَ «مَجْلِسِكَ» الْمُنِيرِ
طُمُوحَ لَيْسَ يَرْضَى بِالْيَسِيرِ
أَخُو «الْخَمْسِينَ» وَهُوَ عَلَى شَفِيرِ
«الْيَتَامَى» بِالْأُخُوَّةِ كُنْ نَصِيرِي
أَجُودُ بِهِ مِنَ الْكَيْسِ الصَّغِيرِ
أَلَسْتَ الطَّبَّ مُنْقَطِعَ النَّظِيرِ؟
«يُسَفِّتُجْهُ» عَلَى «بَنكِ» الشُّعُورِ
وإنْ تَرْفُضْ فَكَالتَرَبِ الْحَقِيرِ
«وَفَرَطُ» الْجَيْبِ لِبْنَانِي وَسُورِي
فَكَمْ فِي دَارِ فَضْلِكَ مِنْ أَسِيرِ

أَقَافِيَّتِي عَلَى مَثْنِ الْأَثِيرِ
وَدَقِّي بَابَهُ عَنِّي وَقُولِي
أَسِيرٌ عِنْدَ بَابِكَ فِي الدِّيَاجِي
وَحُذْ بِيَدَيْهِ تَغْنَمُ أَجَرَ عَانَ
يَتَوَقَّ إِلَى «الثَّلَاثِينَ» ابْتِهَاجًا
فِيَا عِلْمَ «العَشِيرَةِ» يَا إِمَامَ
فَمَا فِي الْجَيْبِ إِلَّا «فَلَسَ أُمِّي»
فَإِنْ تَفْصِدْ أَخَاكَ فَكُنْ حَكِيمًا
فَمَا مَالُ «الْمُعَلِّمِ» غَيْرَ شَعْرٍ
فَإِنْ «أَمْضَيْتَ» فَهُوَ مِنَ الدَّرَارِي
فَدِينَارُ الْبِلَادِ بِلَا مَسْمَى
فَإِنْ تَنْصُرَ أَخَاكَ فَلَيْسَ بَدْعُ

الجواب

فَذَرْنِي وَالَّذِي لَكَ فِي ضَمِيرِي
وَمَا أَنَا مِنْ يَقْصَرٍ عَنْ قَصِيرِ
أَضَرَّ بِصَاحِبِ الْكَيْسِ الصَّغِيرِ
مَنْضِدَةً مِنْ «الْأَخِّ» الْكَبِيرِ
غَدَاةٌ يَحُلُّ كَالْبَدْرِ الْمُنِيرِ
يَدِلُّ عَلَى انْشِرَاحٍ فِي الصُّدُورِ
وَزَخْرَفَتِ الْمَقَاعِدُ لِلْأَمِيرِ
بِحَضْرَتِهِ وَتَشْرِيفِ قَرِيرِ

سَقَطَتْ مِنَ الْوَفَاءِ عَلَى خَبِيرِ
رُؤْيَاكَ سَوْفَ «تَأْخُذُهَا» سَرِيعًا
زَهْدُنَا بِالنُّضَارِ الْيَوْمَ إِذْ مَا
فَأَهْلًا بِالْغَوَالِي قَدْ أَتَيْنَا
وَفِي «دَارِ» الْأَسِيرِ يَحِلُّ أَنْسُ
وَلَا حَاجَ عَلَى وَجْهِ الْقَوْمِ بِشُرِّ
وَبُرَّجَتْ «الْبُرُوجُ» لِمَلْتَقَاهُ
وَنَادَوْا فِي الْمَحَافِلِ وَالنَّوَادِي

مِنْ عَهْدِ الصَّبَا

نكريات

لقد صدق الذين قالوا: أدركته حرفة الأدب فهي محنة ليس مثلها محنة. يعيش صاحبها في إقلال وكأنه صاحب حور وقصور. ليس في الأمر تشويق ولا ترغيب، ولكنه الطبع يسوق صاحبه بعصاه إلى حيث يرغب، وإلى حيث لا يرغب، وهو في كلتا الحالتين راض. علموني فتعلمت، وساقوني فانسقت، ولكن اختلفت نية الجمل والجمال، وقد بدت طلائع ذلك في مبزغ الشباب. ها نحن في مدرسة مار يوحنا مارون، المدرسة معدة لتهيئ للقطيع رعاة، وقد كنت أنا من المرشحين لتلك المهمة، ولكني كسرت العصا قبل أن أهش بها على الغنم.

ها نحن في درس اللغة العربية، وها هو أستاذنا الخوري إلياس زيادة يعلمنا قرض الشعر، وها هو رئيس المدرسة الصالح المونسنيور بطرس أرسانيوس يقرع الباب غاضباً. سمع سيادته أستاذنا يملي علينا هذين البيتين لنشطرهما:

وَلَمْ أَنْسَ الْمَلِيحَةَ حِينَ رَاحَتْ إِلَى قَاضِي الْمَحَبَّةِ تَشْتَكِينِي
فَقُلْتُ لَهَا ارْحَمِي ضَعْفِي فَقَالَتْ: وَهَلْ فِي الْحُبِّ يَا أُمِّي ارْحَمِينِي؟

فصاح به، وهو يفتح الباب: يا خوري إلياس، أيش بك اليوم؟! فابتسم المعلم ابتسامته الزعفرانية، وارتجفت لحية المونسنيور أرسانيوس فخلنا كل شعرة ترقص وحدها. وانتهت المعركة الصامتة، ففهمنا أن مثل هذا الشعر لا يليق بالثوب الأسود، فرغبت فيه، أي في ذاك الشعر لا في الثوب.

ورحنا تقرزم حتى استحالت الغابة القائمة على كتف مار يوحنا مارون إلى شعر،
ففي عيد رأس السنة حفلة تهنئة للرئيس بالعام الجديد لا تسمع فيها غير الشعر، وفي
عيد مار بطرس حفلة شعر له أيضاً. ناهيك بأن لكل أستاذ عيداً، ولا بد من القيام
بالواجب نحو حضرته شعراً. فالعيد بلا شعر كالسفرة بلا جبن وزيتون. وهكذا دواليك
حتى صرنا ننام ونقوم ونلعب في جو من الشعر، وها هو أحدنا يقول على المائدة:

خَاطُنَا بَرغَلًا مَعَ بِنْتِ لُوبٍ نُصَوِّلُهَا بِشَوَكَاتِ الْحَدِيدِ

يعني ببنت لوب الفاصوليا حبيبة قلب التلاميذ ومعشوقتهم الأزلية
وها هو رفيق لي يهنئ معلماً له بقصيدة كلها من هذا الطراز المعلم:

مُنْغَزَّلًا فِي مَدَحِ أَنْطُونِ التَّقِي فِي مَدَحِ أَنْطُونِ التَّقِي مُتَغَزَّلًا

ما لنا ولهذا، فلنعد إلى مارون. عَنِّي أَنْ أَشْطَرِ قَصِيدَةً كَانَ يَرُويهَا أَكْثَرُ أَبْنَاءِ
صَفِي، وَمِنْ أَشْهَرِ أَبْيَاتِهَا:

شَبَكْتُ عَشْرِي عَلَى رَأْسِي وَقَلْتُ لَهُ	يَا رَاهِبَ الدَّيْرِ، هَلْ مَرَّتْ بِكَ الْإِبِلُ؟
... ..	وَرَاهِبُ الدَّيْرِ بِالنَّاقُوسِ مُشْتَغِلٌ
يَا حَسْرَتِي فِي وَقُوفِي عِنْدَ بَابِكُمْ	تَقُولُ سُكَّانُهُ مَنْ أَنْتَ يَا رَجُلٌ؟

فشطرت تلك القصيدة، ثم ذيلتها ببضعة أبيات فصارت قصة سميتها «قتيل
الغرام».

وأطلعت معلمي — الخوري إلياس — عليها فأعجب بها، فمضيت في تنقيحها حتى
صارت شعراً، كما كنت أفهم الشعر في ذلك الزمان، ووطغاني الشيطان فبعثت بها إلى
جريدة الروضة فنشرتها. وذاع خبرها فاتصل بسيادة المونسنيور فدعاني إلى زيارته،
خيل إليّ أولاً أنه معجب بها وأن الأمر ينتهي عند لوم وتوبيخ، فإذا به يصفع خدي الأيمن
فحوّلت له الأيسر، ووقفت أمامه مكتوف اليدين مظهراً أقصى الطاعة، فصاح بي: قتيل
الغرام. كيف تموت الناس من الغرام يا مارون، يا حسرتي، ضاع تعب خالنا خوري
حنا عبود.

مِنْ عَهْدِ الصَّبَا

وأخذ القصيدة بيد ترتجف وقرأ:

وظبية مِنْ صِبَائِي قَدْ شَغِفْتُ بِهَا تَرْنُو إِلَيَّ وَسُتِرَ الْقُرْبُ يَنْسَدِلُ

أيش هي هذي الظبية يا مارون، ومن هي يا ابني؟
ثم قرأ:

رَفَعْتُ صَوْتًا جَهِيرًا قَرَبَ صَوْمَعَةٍ يَا رَاهِبَ الدَّيْرِ هَلْ مَرَّتْ بِكَ الْإِبِلُ

فقال: نعم، الراهب ناطور عشاق. ثم قرأ: وراهب الدير بالناقوس مشتغل. فقال:
لا، شغل الراهب مثل شغلك يا كلب.
ولما بلغ هذا البيت:

يَا حَسْرَتِي فِي وَقُوفِي عِنْدَ بَابِكُمْ تَقُولُ سُكَّانُهُ مَنْ أَنْتَ يَا رَجُلُ

استولى على أمد الغضب وصرخ بي: انقبر من وجهي، الله يخيك، لا تقف ببابي.
فخرجت متعثراً بأذيال الخجل، وشكرت الله على الانصراف، ولكنه استدعاني ليقول
لي: لولا كرامة جدك في قبره، كنت طردتك الآن. قصاصك: ركوع جمعة على المائدة، أكلك
خبز وزيتون، وصوم شهر، كتابة خمسة آلاف سطر من ديوان المطران — جرمانوس
فرحات — لا، بدل الكتابة تنظم قصيدة في مدح مريم العذراء. نحن على أبواب شهر
آيار. هيئها، وإذا ما كانت قصيدة أحسن من هذه ألف مرة تعرف ماذا يصير.
ولما رأيت أنه لان قلت له: ولكن ما زائدة بعد كان، فأجابني: وأنت زائد في هذه
المدرسة، وبعد أيام دعاني وسألني إن كنت أتممت القصاص، فأومأت برأسي أن نعم.
— والقصيدة نظمها؟ فأجبت: نعم. ولما قرأت له عنوانها: «باقة أزهار لملكة آيار»،
ابتهج جداً. ومضيت في تلاوة القصيدة فأعجبه وصف الربيع والمناظرة بين الزهور:
الورد، والزرجس، والبنفسج، والزنبق، والشقيق. وابتسم لي حين رأى أنني وفقت بين
الزهور كلها وجمعتها في أضمامة واحدة وسرت بها إلى الهيكل كتعلب لافونتين.

ثُمَّ قَدَّمْتُهَا لِأَطْهَرِ أُمِّ قَدْ نَسَامَى مَقَامُهَا فِي النِّسَاءِ

فمدَّ لي يده لأقبلها، وقال في تلك الأثناء: الله يبارك عليك. الماضي مضى، حسن حالك.

وكتب هو إلى صاحب جريدة الروضة فنشرها في الصفحة والحقل حيث نشر «قتيل الغرام». وهكذا دقت أول لوعات الغرام قبل أن أعرفه.
وكان عام ١٩٠٣-١٩٠٤ آخر أعوامي المدرسية في مدرسة مار يوحنا مارون، فجئت مدرسة الحكمة، فإذا خبر القصيدتين قد سبقني إليها، فنظمت قصيدة عنوانها «هللوا» كادت أن تقضي علي.
ثم نظمت قصيدة «المرائي» وأرسلتها إلى مجلة المشرق، فرفض الأب شيخو نشرها. ثم كان عام ١٩٠٦ فودعت المدرسة وداعاً أخيراً، ونظمت قصيدة ودعت فيها «طبقتي» ومما قلت فيها:

ولا تُقُولِي: عَجِيبٌ مَا تَغْزَلُ بِي من قبله شاعرٌ أو باتَ مفتونا
فإنَّ غَيْرِي بسلمى عنكِ مُنْشَغِلٌ وما لسلمى نصيبٌ عندَ مارونا

فعلقت هذه على قصيدة «هللوا» وفارقت المدرسة بالتي هي أحسن، كما أوصى الشاعر.

ونظمت ونظمت، وظللت أنظم حتى سنة ١٩٣٤ فكادت تكون قصيدة «الصليب» آخر شعر قلته، لو لم أنظم قصيدة في الاستقلال الذي حننت إليه طول عمري وسيأتك الخبر. أما الآن فاسمع «هللوا» وهي تعطيك صورة عن غزلي ونسيبي، إن كان لي غزل ونسيب. إن لي شعراً كثيراً حجبته عنك لئلا أقضي عليك، فاشكر لي هذا الذوق اللطيف.

هَلِّلُوا

اخْلَعِي فَجَرَ نَاطِرِيكِ عَلَيْنَا وَهَلِّمِي بِنَا نَسِيرَ الْهُوَيْنَا
انْظُرِي موكِبَ المَلِيكَةِ قَدْ أَقْبَلَ تَشْدُو جَوْقَاتُهُ هَلِّلُوا

* * *

الْفَضَا هَيْكَلُ الْغَرَامِ الْمُقَدَّسِ فِيهِ ظِلٌّ مُتَيِّمٌ يَتَنَفَّسُ
إِنَّ «زِيَّاحَ» حَبْنَا سَرْمَدِيَّ تَتَغَنَّى طُيُورُهُ هَلِّلُوا

* * *

أَنْتَ شَمْسِي فَشَعْشَعِي وَأَنْيرِي ظُلُمَاتٍ عَمِيَاءَ عَاقَتْ مَسِيرِي
انْظُرِي فَالطُّيُورُ تَرْنُو إِلَيْنَا شَادِيَاتٍ لَوْجِدْنَا هِلُّوِيَا

* * *

رَعْشَةً تَعْتَرِيكَ إِذْ نَتَلَاقِي رَعْشَةَ الطِّفْلِ مِنْ رُقَادٍ أَفَاقَا
فَالِى خَيْمَتِي فَفِي تَلَّةِ الْخَيْمَةِ وَحْيٍ تَأْوِيلُهُ هِلُّوِيَا

* * *

إِنَّ عَيْنَيْكَ فِيهِمَا لَجَّانِ بِهِمَا يَغْرُقُ الْمُحِبُّ الْعَانِي
فَاعْمِدِينِي فِي نَهْرِ أَرْدَنِكَ الْعَذِّ بِ فَيَشْدُو رُوحُ الْهَوَى هِلُّوِيَا

* * *

كَمْ ذَهَبْنَا إِلَى الْحُقُولِ سُكَارَى بِرَحِيقٍ وَمَا خَلَعْنَا عَذَارَا
لَيْسَ مِنْ قَائِدٍ لَنَا أَوْ سَمِيرٍ غَيْرَ شَوْقٍ يَحْدُو بَنَا هِلُّوِيَا

* * *

نَتَمَشَّى فَتَسْتَفِيقُ الزَّهْوَرُ مُتَلْعَاتٍ أَعْنَاقُهَا وَالْخُصُورُ
إِنَّ أَحْدَاقَهُنَّ تَرْنُو إِلَيْنَا وَعَلَى الْمِبْسَمِ الطَّرِي هِلُّوِيَا

* * *

خَبَّرِينِي عَنْ ذَلِكَ الْبُرْكَانِ لَا تَلُودِي بِوَاهِي الْكَثْمَانِ
فَعَلَيْهِ تَدْلُنِي الْقَمَّتَانِ فَأُغْنِي دُنْيَا الْهَوَى هِلُّوِيَا

* * *

قُمَّتَا الْوَجْدِ هُنَّ تَوَّعَمَتَانِ لَسْتُ أَذْرِي — وَاللَّهِ — مَا يَهْمَسَانِ
لَا أَرَى إِنْ حَدَّقْتُ غَيْرَ شَفَاهِ رَاجِفَاتٍ يَهْتَفْنَ بِي هِلُّوِيَا

* * *

ذَكَّرِينِي فَهَلْ نَسِيتِ هَوَانَا يَا لَحُبِّ كَأَنَّهُ مَا كَانَا
رَحِمَ اللَّهُ بَعْدَنَا مَنْ تَغْنَى فِي هَوَاهُ مُرْتَمًّا هِلُّوِيَا

* * *

زواج

هَلْلُويَا فِي الْحَبِّ كَانَتْ نَشِيدِي يَوْمَ كَانَتْ هَيْفَاءُ بَيْتَ قَصِيدِي
فَهَوَاهَا أَهَاجَ فِي طُمُوحَا أَنْطَقَ الْكَوْنُ يَوْمَهُ هَلْلُويَا

* * *

يَا لِحَبِّ عِشْنَا بِهِ أَعْوَامَا كُنْتُ مُسْتَعْذِبًا بِهِ الْأَلَامَا
كُنْتُ كَالْعُودِ فِي اللَّهْيَبِ يُغْنِي سُورَةَ الذِّكْرِ صَارِخًا هَلْلُويَا

إلى شيخ المجاهدين

عهد وعلم

كان يوم راشيا فهلعت قلوب وتهللت قلوب، وأخيرًا انتصر الحق وعاد الشيخ الرئيس — بشارة خليل الخوري — ومعه حكومته «الرياضية»، فاشتعلت نواذب لبنان ومفارقة ابتهاجًا بالبشرى، فنظمت هذه الأبيات ساعتئذ، بعد سنوات عشر لم أقل في أثنائها بيت شعر، ولن أقول بعدها، إن شاء الله.

وبما أنني آليت أن أعترف لك اعترافًا صادقًا أقول: إنني قلتها على هذه القافية معارضًا الشاعر الذي هنا فخامة الشيخ بالرئاسة، فبنى قصيدته على قافية الشريف الرضي القائل «لابن عمه» الخليفة القادر بالله:

عطفًا أمير المؤمنين فإننا	في دوحه العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت	أبدًا كَلَانًا في المَعَالِي معرق
إلا الخلافة ميّزتك فإنني	أنا عاطلٌ منها وأنت مطوق

قد سميتها يوم قلتها «أضحية العيد» لأنها ولدت يوم «عرفة» عام ١٩٤٣، بعد عودة الشيخ من قلعة راشيا بأيام. إن هذه القصيدة لم تنشر ولم ترفع إلى صاحبها، ولولا أنها جزء متمم لهذا الديوان لظلت مطوية إلى يوم أطوى.

تصحيح: كنت ظننت الشاعر يعارض الشريف مستلهمًا ما بين اسمه واسم صاحب الفخامة الحالي من اتفاق، فإذا بي، وأنا أنظر في كتابي «على المحك» لأقدمه إلى الطبع، أرى له قصيدة تهنئة في صاحب فخامة سابق، من هذا الوزن والقافية.

نُورٌ وَنَارٌ فِي سَمَاكِ يُحَلِّقُ فَتَعَهَّدِيهِ بِنَهْضَةٍ لَا تُسْبِقُ
هَذَا «لِوَاؤِكَ» يَا بِلَادِي فَانْظُرِي عِلْمَ الْفِتْوَةِ كَيْفَ قَامَ يُصَفِّقُ
قَدْ أَتَقَدَّ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَدَى فَعَلَى «جَوَانِبِهِ» الدِّمَا تَنْدَقُّ
وَالْمَجْدُ مُبْتَدِرٌ، وَخَيْرُ الْقَوْلِ مَا جَاءَ ارْتِجَالًا وَالْمَحَكُّ مُخَفِّقُ

* * *

عَهْدُ عِصَامِي يُسَوِّدُ نَفْسَهُ عَهْدٌ يَقُولُ الشُّعْرَ فِيهِ «الْبَطْرُقُ»
مَهْ يَا زَهِيرٌ، فَإِنْ عَرَّتَكَ سَامَةٌ فَشُبُوحُنَا تَهْوِي الْحَيَاةَ وَتَعْشَقُ
طَرِبُوا لِلِاسْتِقْلَالِ أَحْمَرَ قَانِيَا رَيَّانٍ مِنْهُ دَمُ الْكِرَامَةِ يَعْبَقُ
إِنَّ الدَّمَ الْفَوَاحَ خَيْرُ هَدِيَّةٍ لِلْأَمَةِ الْعِذْرَاءِ وَهُوَ الْمَوْثِقُ
هُوَ خَيْرُ مَهْرٍ لِلْعُهودِ إِذَا التَوْتُ وَبِهِ يُسَجَّلُ صِكُّهَا وَيُصَدَّقُ

* * *

مَرَحَى بِشَارَةٍ، إِنَّ «يَوْمَكَ» خَالِدٌ يَوْمٌ أَفَاقَ عَلَى صَدَاهُ الْمَشْرِقُ
فَاسْتَبَسَلَ الْبَلَدُ الطَّعِينُ يَحْفُهُ حَقٌّ بِهِ لُسُنُ الْعَوَاصِمِ تَنْطُقُ
وَلَرُبَّمَا دَانَ الْكُمِّيُّ لِأَعَزَلٍ فَالْحَقُّ سُلْطَانُ السَّلَاحِ الْأَعْرَقُ
يَا وَجْهَ لَبْنَانَ أَحْمَدِ الْيَوْمِ السَّرَى فَالْلَّيْلُ زَالَ وَلَاحَ فَجَرٌ مُشْرِقُ
إِنَّ الْأُمُورَ بِوَقْتِهَا مَرْهُونَةٌ فَإِلَيْكَ مَجْدًا كَنْزُهُ لَا يَنْفَقُ
يَا شَيْخَ لَبْنَانَ الْأَشْمَ بَلَّغْتَ مَا تَرْجُو وَهَا أَنْتَ الرَّئِيسُ الْمُطْلَقُ
فَارْفَعْ لَنَا الْعِلْمَ الَّذِي لَا يَنْطَوِي وَانْسَجْ لَنَا التَّوْبَ الَّذِي لَا يُخْلَقُ
سِرٌّ بِالسَّفِينَةِ، لَا تَدْعُ سُكَّانَهَا وَاهْجُرْ رِقَادَكَ فَالْعَبَابُ يُورِّقُ
يَا أَيُّهَا الرُّبَّانُ، كُنْ حَذِرًا فَفِي جَوِّ السِّيَاسَةِ أَلْفُ نَوَى يُغْرِقُ
كُنْ لِلْكَرَامَةِ مِثْلَمَا عَوَدْتَنَا وَاحْذَرْ فَعَيْنُ الْمَجْدِ يَقْطِي تَرْمُوقُ

* * *

قَالُوا «رِيَاضٌ» فَقُلْتُ: هَذَا غَايَةٌ فِيهَا مِنَ الْأَسَدِ الْأَشَاوِسِ فَبَلِّقُ
صَلْبُ الْعَقِيدَةِ وَعَرَّةُ أَخْلَاقِهِ كَجِبَالِ لَبْنَانَ فَلَا يُتَسَلَّقُ

* * *

إلى شيخ المجاهدين

لَبَنَانُ يَا بَيْتَ الْحَضَارَةِ، لَا تَرَى
أَمْنَارَةَ الشَّرْقِ الَّتِي لَا تَنْطَفِي
لَا زِلْتَ سَبَاقًا إِلَى غَايِ الْعُلَى
إِلَّا فُؤَادًا عِنْدَ ذِكْرِكَ يَخْفُقُ
وَشُعَاعُهَا فِي الْعَالَمِينَ مُفَرِّقُ
وَبِكُلِّ مَعْرَكَةٍ يُظْلِكُ بَيْرَقُ

١٩٤٣

بَيْنِي وَبَيْنَ الرِّيحَانِي

خاتمة

وجدتُ في الريحاني أخا رأسي ساعةَ عرفته عامَ ١٩٠٨، أما كيفَ عرفتُه، فقد سردتُ خبر ذلك في غير هذا الموضع، جاءنا الريحاني من أميركا صوفيًّا ولكنَّ صوفيته كانت غيرَ مائعة، فأحببته، جاء من بلاد العمِّ سام ومعه في جرابه — بذور للمزارعين — فألقاها في تربة بلاده، ثم استحالت صوفيَّته عملاً فصار كاتبًا نضاليًّا، فمشيت وإياه ورافقتُه حتى آخرِ خطوة، فأعجبني منه تصلبه، فلم يكن قطُّ — كبعض أصحابنا — مع كل خيل مغيرة، كان أمين أوَّل من حلم «بالجامعة العربية» وسعى لها، وفي كتابه ملوك العرب وغيره بيان ذلك، ولسوء حظه لم يكتب له أن يعيش ليرى ثمرة نضاله، ولكن هذا لا يعني الفيلسوف العامل، فهو يحيا للأجيال، وفي الأجيال، ومع الأجيال. ليس هنا مقام درس الريحاني، فلهذا موضعه من كتبني، أما الآن فأقول ما لا بدُّ منه لوحدة كتابي هذا، فهو صورة لقضية لم أدعِ التبجح بها إلا حين صار القول فيها مباحًا، وكثر المدعون، وحام حولها المتذبذبون الاستغلاليون. أسميت ابني محمدًا، عام ١٩٢٦، فكان الريحاني أول من طرب وانتشى لهذا العمل. أدرك أبعد مداه فكتب إليَّ هذا الكتاب:

أخي مارون عبود

أصافحك بيدي الحب والإعجاب، وأهنتك بصبيك الجديد، وأهنته باسمه الأجد، وبالقصيدة التي نظمتها له، ولهذا الوطن الغني بالآديان، الفقير بين الأوطان. أحسنت يا مارون، أحسنت، وخير الآباء أنت.

وحبذا في المسلمين، وفي الدروز، وفي اليهود، من يقتدون بك فيسمون أبناءهم بأسماء آبائنا القديسين، ونسمي أبناءنا بأسماء آبائهم الأولياء، فينشأ في هذه البلاد جيل جديد من الإخوان — الإخوان الحقيقيين — الذين لا يعرفون من أسمائهم أنهم لأحمد أو لموسى أو للمسيح، بل لا يعرفون خارج المعابد أنهم مسيحيون أو مسلمون أو موسويون.
إن المستقبل لهذا الجيل من الإخوان، وفي مقدمتهم محمد بن مارون بن عبود اللبناني — حرسه الله.

الفريكة، لبنان ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٦
أخوك: أمين الريحاني

وتلت هذا الكتاب اجتماعات عديدة بيننا دبرت فيها خطط غايتها «التوحيد» — أعني من التوحيد القومي منه — فكان أمين رسولاً، وكنت أنا معلماً، فعملنا ما عملنا ولا فخر.

وكان عام ١٩٣٤ فدُعيت وأميناً لنخطب الناس، وكان الداعي لي تلميذي الأستاذ معضاد معضاد، فتخلفت أنا ولبي أمين؛ فلم يكد يخرج من الحفلة حتى قبضت عليه السلطة ونُفي من البلاد، وبعد قليل من الزمن عاد أخونا أمين إلى الفريكة فكتبت إليه:

أخي أمين دمت عزيزاً مشرفاً

ما أدري كيف عدت، أتائباً كداود، أم متمرداً كابيشالوم؟ واليد التي أعادتك، أقفازها من فراء الهررة وريش الديوك، أم من جلود الأسود والنمور؟ أم الجنة لا يدخلها إلا من توسل إلى الله بأحد القديسين الاختصاصيين كالخضر وغيره. يا أخي أمين، خبرني، أليس الانتداب في كل مكان حتى السماوات، في كوخ الفقير وقصر الملك، طوراً تنتدب الأناس وتارة الإناث.

فالإي أين يا أمين، إلى القبر؟ ففيه انتداب منكر ونكير، إلى السماء؟ ففيها انتداب بطرس ورضوان، وفي هذه الأرض يتنازعنا الملاك، وفي جهنم لوسيفوروس وأصحابه ذوو الأذنان والقرون.

فما أرى هذه الأمة إلا مفلتة من نير لتقع تحت النير، وما شكر السوق إلا من ربح. لا يثير شجوني شيء يا أخي، كالذين غرقوا حتى الأذان في لجة

بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّيْحَانِي

الفرنج، حتى إذا انقطعت الجراية كفروا بالفرنج، ولا أدري إذا كانوا يندمون
كبطرس عند صياح الديك.

ألا رحم الله ابن الرومي حين قال يهجو إسماعيل بن بلبل:

تَشِين حِينَ هَمَّ بِأَنْ يَشِيْبَا لَقَدْ غَلَطَ الْفَتَى غَلَطًا عَجِيْبَا

فما أكثر المرتدين في هذه الأرض — وإن إلى حين — ونحن كرجال الدين
نعد الارتداد هداية، وهو وليد الغاية، والغايات أكثر عجائب من الليالي.
علَّت النفس برؤيتك في العراق، فإذا بك تعود إلى الفريكة، فهنيئًا لك
ربيعها الضاحك كسنتك، وإن خلا من سخريتك، وأنعم بمنظر سنا بلها الطريئة،
فكل ما على «أرضنا» فريك، الحصاد كثير والفلة قليلون، فاطلب ما شئت
من رب الحصاد.

قَرَّتْ بطلعتك عين «عجوز منبج» يا أبا فراس، وعليك ألف سلام من أخ
يشتاقتك وهو جد مؤمن بوفائك ومروءتك وإبائك.

١٩٣٤ / ٤ / ٢

أخوك: مارون عبود

أما جواب أمين فكان حامياً، ولكنه استحال في قلبي بردًا وسلامًا، وإليك نصه مع
صورته الأصلية:

أخي مارون حفظه الله

وأبیشالوم إنك مازح في كتابك الجميل إلي، أو أنك هازئ يائس، ليس أخوك
ممن ينشدون المثل الأعلى في الزبور، ويقتدون بمن غير فكره عند صياح الديك،
فقد عدت إلى الوطن لأنني مثل الذين أبعادوني أحب هذا الوطن، ومثلهم أحب
أن أقيم فيه على الدوام.

وإننا نحن — والله — المقيمون على الدوام، لا هم، أجل إنني أعلم، وأعتقد،
وأتيقن، وأتأكد أن سيجيء اليوم الذي يرى فيه المستعمر الأثيم حاملًا بندقيته،
ومدفعه، وطبله، وزمره — وكيسه الفارغ — وراحلاً راحلاً.

البرهان؟ الدليل؟ أنا وأنت والقلائل الكرام إخواننا في كل مكان. البرهان؟
الدليل؟ مدرستك وتلاميذك، ومدرستي السيارة وتلاميذي، وذريتهم وذريتنا،
وإيمانهم وإيماننا، وجهادهم الذي سيكون أضعاف جهادنا شدة وانتشارًا، لا
يريبك ذلك.

فلا تزال الشعوب سائرة إلى الأمام.
ولا يزال الإنسان عاملاً جاداً في سبيل الرقي في كل مكان، ولا تزال البنود
الحمرة تخفق فوق رواسي الفكر، والأمل الخالد يشع حولها.
ولا يزال الله على عرشه حيّاً يرزق.
عفوًا يا أخي مارون، ما جئت أقرع الطبول في حزنك، ولا جئت أعزيك
بوفاة الوالد — رحمه الله وسيرحمه الله — وكيف لا يرحمه وأنت ابنه؟! بل
سيكرمه لأنك ابنه، لا يريبك ذلك.
إن يقيني بما سيكون لأشدّ جدًّا من يقيني بما هو كائن، الغد لنا يا
مارون، الغد لنا هنا وهناك.
والسلام عليك من أخيك المشتاق إليك.

الفريكة، لبنان في ١١ نيسان ١٩٣٤
أمين الريحاني

سلم على الأخ الرئيس والإخوان زملائكم، دمتم متمردين في ما تعلمون، موفقين في
ما تزرعون.
هذه رسالتنا أيها القارئ العزيز أطلعناك عليها واضحة جلية في هذه الأوراق، وإننا
لراجعون عفوك ورضاك، فعسى أن تكون أنت من المجلين في ميدان القومية قولاً وفعلًا،
وتذكرنا كما ذكرنا من سبقونا:

وَأِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى

